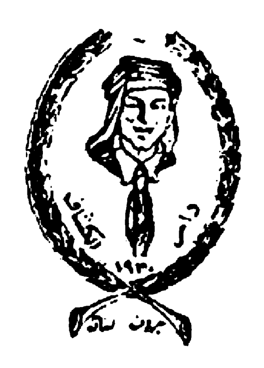


بقلم

عبد الله المشنوق



الناشر
مكتبة الكشاف ومطبعتها
بيروت

حزيران ١٩٤٨

مقدمة

●

هذه فصول في موضوعات متنوعة متباينة ، كتبتها في أزمنة مختلفة، فهي اذن متفاوتة قوة وضعفاً ، ليس بينها لحمة واضحة وان يكن معظمها يتناول مشكلات الأدب والاجتماع والوطنية في شرقنا العربي، وما اكثر هذه المشكلات وما أقل الذين يتصدون لمعالجتها اليوم على ضوء الواقع والحقيقة !

قد يكون في العنوان « ملاعق من فضـــة » بعض التضليل والاغراء للقارىء يحسب انه مدعو الى مائدة روحية شهية أنيقـة سخية، صحافها من ذهب، وملاعقها من فضة، وألوانها تحمل انفاس طاهٍ خبير بتحضير الاطعمة وتنويع التوابل ..

ما تعودت التضليل – عَلِمَ الله ! – وليس من شيمتي الاغراء .. وما « ملاعق من فضة » سوى عنوان لأحد فصول الكتاب أعجبني لفظه وجرسه – فهو قرآنيّ – فاخترته عنوانا لهذا الكتاب .

اعود فأقول : ليس في الكتاب مائدة روحية ولم أدع الادباء

الى مأدبة.. وانما هي الوان جد متواضعة لا أثر فيها للاناقة والفن.. فاذا كنتَ من ذوي المعد المترفة ومن رواد الأناقة اللفظية والفكرية — ملاعق وصحاف من فضة — فانك سوف تمنى بخيبة مريرة ، واما اذا كنت من ذوي المعدِ القوية فانك قد تجد في هــــذه الفصول ما تستسيغه .

ولعل أصدق ما اقوله فيها انها من « حواضر البيت » ...

حزيران ١٩٤٨ — عبد الله المشنوق

مجـاعة ادبية

●

جمعتني منذ عام حلقة أدبية في فندق «كونتننتال» في القاهرة، كان قوامها ثلاثة من أدباء مصر المعروفين، احمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، وكامل كيلاني، فدار الحديث حتماً حول النهضة الادبية في العالم العربي وتطرقنا الى أدب الحرب وأدب ما بعد الحرب — وكادت كلمتنا تجمع على ان الادب العربي الحـــديث لا يمت الى الحياة العربية بصلة وثيقـــة وان ادبنا لا يستمد عناصره من صميم الواقع ، وانه أدب غير مقيد بزمان او مكان ، وضربت لهم مثلاً لعله لا يخلو من الغلو — فقلت لهم ان العدد من الرسالة او الثقافة الصادر في تموز عام ١٩٣٧ يمكن اصـداره نفسه عام ١٩٤٥ دون ان تتأثر موضوعاته ودون ان يشعر القاريء ، ذلك ان أدباءنا لا يستمدون مادتهم من هذه الحياة المتجددة كل يوم، بل كل ساعة، وانما يكتبون في العام الاول من القنبلة الذرية ما لا يختلف كثيراً عما كتبه ادباؤنا في نهاية القرن التاسع عشر !.

ولعل خير مقياس تستطيع ان تقيس به قيمة أثر ادبي في اية لغة من اللغـات هو ان تحاول ترجمته بصدق وبلاغة الى لغة ثانية فاذا احتفظ بقوته الادبية كان أدباً عالمياً يستحق الحيـــاة - ولو رحنا - على هذا الأساس ننقل الى اللغات الاجنبية ما جادت به اقلام أدبائنا وكتابنا شعراً او نثراً خلال النصف الاول من هذا القرن لما وجدنا مادة خصيبة لهـذه المحاولة ، ولرددنا الشيء الصالح الذي قد نعثر عليه الى الاصل الاجنبي الذي اقتبس عنه ..

هذه حقيقة مؤلمة يجب أن نسلم بها ، لا انقف عندها ونندب أدبنا وادباءنا ، بل لنتبين اسبابها ونعمل على معالجتهـا فننقذ أدبنا من هذا الركود بالنسبة الى الآداب الاجنبية المتوثبة المتجددة .

يؤيد هذا الرأي حديث جرى منذ ايام بيني وبين الاستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المختار . فقـد أعرب لي بمرارة عن أسفه لانه لم يجد في ما تنتجـــه أقلام كتابنا ما يصح ان يترجم لينشر بنجاح في الطبعة الاميركية من مجلة المختـــار وقد عهد الى بعض كتابنا البـــارزين بكتابة فصول خاصة تليق بالنشر في الطبعات الاجنبية من المختار فلم يكن موفقاً في محاولته لان كاتبنا كسول لا يرى اجهاد نفسه لكتابة بحث عميق وانما يكتفي بهذه النظرات السطحية ينشرها في المجلات والكتب الرخيصة ...

نحن نعيش في قحط أدبي لم يسبق لنـــا ان شاهدنا له مثيلاً في

ماضيات ايامنا ، فالشعر في تدهور ، وشعراؤنا اصبحوا « كصخرة المتنبي »لا تحركهم هذه الاحاسيس الوطنية ، وهذه الاحداث الجسام تجري في العالم العربي ! اين ملحمة جامعة الدول العربيـــة ؟ أين شعراؤنا يخلدون مهرجان الجلاء عن سوريا ؟ أين مأساة فلسطين ؟ أين خيبة النصر ؟ أين ؟ أين ؟...

رحم الله شوقي فقد كان عالماً وحده ، وكان شعره « الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه ! ! » .

وأما النثر فليس أحسن حالاً من الشعر ، فالأدب العربي لا يزال محروماً من القصة ، وليس ثمت أية بادرة تدعو إلى التفاؤل ! اتيح لأدبائنا أن يرافقوا أعظم حرب في التاريخ فلم توح إلى أحـد منهم أثراً أدبياً واحداً يصوّر فيه خاطرات نفسه أو مشاهد صراع القوات الجهنمية ، ما له ولهذا كله ، فليكتب لنا فصلاً في المقارنة بين أبي تمام والمتنبي ، أو فليبحث لنا عن شخصية ادبيـة يكتب لنا تاريخها ..

وقد غلبت على ادبائنا النزعة الصحفية التجارية المادية فاذا بأدبهم يتسع سطحاً ولا ينفذ عمقـــاً ، ويتلاشى موضوعاً ومادة الى مستوي رجل الشارع — ورجل الشارع في البلاد العربية في أدنى درجات السلـّم الثقافي — فاذا بأحمـد أمين يهجر « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » و « وظهر الاسلام » و « وعصر الاسلام » ،

ليكتب عن « المودة » في مجلة « الاثنين » مقالاً مزيناً بالصور والرسوم وإذا بتوفيق الحكيم يهبط من « برجه العاجي » ويترك فيه « شهر زاد » و « أهل الكهف » و « يوميات نائب في الأرياف » لينقد شريط « لص بغداد » في مجلة آخر ساعة ، وإذا بعباس محمود العقاد يترك ابن الرومي ونتشه والعبقريات ليكتب في كل موضوع – كخادمة المنزل التي تصلح لجميع الغرف – وفي كل صحيفة يومية أو اسبوعية ، وإذا بطه حسين يترك « الأيام » – أروع « قصة حياة » كتبها أديب عربي – و « على هامش السيرة » لينصرف إلى السياسة الحزبية وليكتب في جريدة « البلاغ » الوفدية بأسماء مستعارة مقالات غامضة يصف فيها خصومه السياسيين وقد مسخهم حيوانات قبيحة .

نحن في مجاعة أدبية ، وأية مجاعة أشد وأدهى من تلك التي يصبح فيها أحمد أمين محرر صفحة الأزياء والمودة في « الاثنين » وتوفيق الحكيم محرر صفحة السينما في « آخر ساعة » وطه حسين محرر باب الهجو السياسي الحزبي في « البلاغ » وعباس محمود العقاد الكاتب « الخادمة » الصالحة لكل شيء ولجميع الغرف ?...

صيد الهدهد

●

قال لي صديقي الطبيب وقد عاد منذ ايام من بغداد :

– سمعت عنك في العراق شيئاً عجباً لم اعهده فيك من قبل وانا الذي اعرفك حق المعرفة في الظاهر والباطن ، اعرف معدتك وكبدك واعرف قلبك ، واعلم ما ظهر واستتر من اسباب لهوك وعبثك وانباء جدك ووقارك .. ولكني لم اسمع عنك في الشام ما سمعته عنك في العراق ! ..

– خيراً ان شاء الله ! . ارجو ألا يذكرني اخواني في العراق إلا بالخير فانا والله احمل اطيب الذكريات من ليالي ضفاف دجلة ولا اذكر « فتيان الصدق » إلا بالشوق واللهفة والحنان ..

– ليس في الامر ما يسوؤك وانهم والله لعلى العهد ، ولكني سمعتهم يقولون باعجاب انك أمهر صياد في الشام والعراق وأدق من سدد بندقيـة إلى هدف ! فعجبت لذلك غاية العجب وانا الذي لم ارك في حياتي تمسك بندقية او تحرك زناداً ! : فكيف اكتسبت هذا الصيت الذائع في الرماية ؟ » ضحكت كثيراً ثم رحت اروي لصديقي تلك الصدفة العجيبة الـتي جعلتني من امهر الصيادين في الشرق الاوسط ! .. كنت في نزهـة مع فريق من شباب دار المعلمين نقطف البرتقال في رياض « بعقوبة » على ضفاف الديالى — وبرتقال بعقوبة بشهادة الخبيرين أفخر برتقـال في الشرق العربي

عندما لمح احد الرفاق هدهداً بديعاً على جـــدار البستان ، وعلى الرغم من بعد المسافة تناولت من أحد الطلاب بندقية بشكل عصا وصممت على ان انتقم لتلك النملة التي أكل الهدهد حبتها ثم وقف في باب سليمان الحكيم الذي خصه الله دون سائر عباده بفهم لغـة الطيور ، يشكو غلة في صدره ويقول بلسان شوقي :

مت من حبـــة بر   احدثت في الصدر غلة
لا مياه النيل ترويها   ولا امواه دجـــلة

فيجيبه سليمان بلغة الهدهد طبعاً :

ما أرى الحبـــة الا   سرقت من بيت نملة
تلك نار الاثم في الصدر،   وذي الشكوى تعلة !.

لم اذعن لنصيحة الرفاق الذين اشاروا عليّ بالاقتراب من الجدار ثم الحوا ، فسمع الهدهد اصواتهم فصفق بجناحيه وطـــار محلقاً ، وفي أقل من لمح البصر انطلق الزناد عفواً من يدي وإذا بالهدهد يسقط بين تصفيق الشباب وهتافهم ...

تناولت الهدهد بيدي اتفحصه مزهواً — هذه أوّل مرّة اشاهد فيها ملك الطيور عن كثب —وسمعت الطلاب يتهامسون فيما بينهم:

— هذا استاذ عظيم في الصيد ! يصيب الطريدة « على الطائر » وببندقية عصا !..

وعبثاً حاولوا اغرائي بصيد طيور اخرى كانت تبدو لنا بين الفينة والفينة فأبيت مظهراً زهداً كاذباً ، ونمت على المجد أو الثقة ، وكانت طلقة واحدة أو رمية واحـــدة من غير رامٍ كافية ليذيع

حيتي في عالم الصيد والقنص في العراق !...

ضحك محدثي الطبيب وضحكت ثم فكرت قليلاً وقلت له بشيء من الجدّ

ـ ألستم ياسيدي الطبيب في دنيا الطب من صائدي الهدهد؟.. ينجح أحدكم صدفة في معالجة مريض ، فيذيع صيته ويتألق نجمه ، بينما يظل الكثيرون من الاكفاء يطويهم عالم الخمول والكساد ؟.. ونحن في عالم الأدب ألسنا أيضاً من صائدي الهدهد ؟..

يكتب أحدنا في مناسبة ما مقالاً أو بضعة مقالات تصادف استحساناً وقبولاً لدى الجماهير فيذيع صيته بينهم ويصبح أديباً كبيراً ، وينام على الثقة ، وقد يجود من حين لآخر بحديث أو مقال ولكن هذا كله ليس من الأدب الصحيح في شيء ، الأدب يا صديقي الطبيب ، رسالة سامية تتطلب انتاجاً متواصلاً ونشاطاً متواصلاً ودراسات متواصلة في الكتب ولا سيما كتاب الطبيعة الذي لا يكذب ، والأديب العريق في الأدب هو الذي يقف حياته على الأدب ـ على أنه مهنة الحياة ـ فتجد له من الروائع الفنية في القصص والنقد وما إليهما يتحف بها الجمهور باستمرار ، ولو رحت تستعرض أدباءنا وتنظر إليهم هذه النظرة لما صمد كثيرون منهم ، بل لألفيت جلّهم من صائدي الهدهد !...

وبعد فلا تنسَ يا صديقي القاريء ، وأنت تطالع بعد اليوم ما تجود به مطابعنا العربية من نتاج أدبي ، حكاية صيد الهدهد ، ولا تنس يا صديقي وأنت تطالع هذا المقال اني لم أكن يوماً في دنيا الأدب أكثر من صائد هدهد ببندقية عصا !...

ادركته حرفة الأدب !

●

لست أدري الآن معلمي الشهيد عمر حمد كان اديباً بائساً ام لانه كان بفطرته حزيناً ينزع الى تصوير مشاهد الالم والبؤس حتى الح – رحمه الله – في تلقيني هذه الابيات – وانا بعد يافع – لشاعر النيل يتبرم فيها حافظ ابراهيم بالحياة ويصور لنا بؤس الاديب اذ يصور نفسه قائلا :

سعيت الى ان كدت انتعل الدما … وعدت وما اعقبت الا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع … رأى في ظلام القبر انساً ومغنما !.
وما عصمتني عن زماني فضائلي … ولكن رأيت الموت للحر اعصما !.
فهبي رياح الموت نكباء واطفئي … سراج حياتي قبل ان يتحطما !.

وكان معلمي حريصاً ، وهو يشرح لنا معاني الابيات ، على ابراز الاديب بهذه الصورة المظلمة ، فتكونت لدي فكرة كئيبة عن الادب لازمتني طوال الشباب ، واوشكت ان تصبح عقيدة قوامها ان الادب والبؤس صنوان لا يفترقان ، وان من نذر نفسه

للادب فقد نذر نفسه للشقاء !

وما كانت مطالعاتي في كتب الادب عن حياة الادباء الا لتزيدني رسوخاً في هذه العقيدة ، وما كان اتصالي بادبائنا الاعلام في لبنان وسوريا وما عرفته عن حياتهم في مباذلهم وعن نهايتهم المفجعة الا لتزيد هذه الفكرة وضوحاً وجلاء .. ولست انسى ما قرأته يوماً في احد كتب الادب — ولعله العمدة لابن رشيق القيرواني — حيث اراد ان يصور فقر احد الناس فلم يزد على ان قال : لقد ادركته حرفة الادب !.

لقد ادركته حرفة الادب ! هذه هي الصورة التي كان يتناقلها الناس في عالمنا العربي عن الاديب وما يزالون ، وهذه هي الصورة التي اشار اليها شاعرنا الظريف المرحوم عبد الرحيم قليلات حين انجز طبع ديوانه الانيق « الهيام » ونشر في الصحف عنه الاعلان الظريف التالي :

صدر ديوان « الهيام » لعبد الرحيم قليلات وثمنه ليرتان

واما من « ادركته حرفـة الادب » فحسبه ان يبعث بعنوانه الى الشاعر حتى يرسل الديوان هدية اليه !.

ولقد كانت هـذه الصورة الكئيبة للاديب صادقة في ماضيات العصور حينما كان الادباء لا يجدون سوقاً تروج فيها بضاعتهم الا في بلاط الخلفاء والملوك وعلى ابواب الامراء ، فكان الشعراء يتكسبون

بالمديح والرثاء والهجاء فهبط الشعر من برجه العاجي الى حضيض المادة ، وراجت سوق الشعراء المداحين، واما الذين كانوا يكتبون الادب للادب نفسه ويبتغون مرضاة الفن لا مرضاة الدرهم والدينار، فقد ظلوا بمعزل عن سوق النفاق والرياء وادركتهم حقاً حرفة الادب فعانوا من الوان البؤس والشقاء ما حفلت بانبائه كتب الادب ، فكان الآباء يعزفون بابنائهم عن هذه الصناعة الشريفة ضناً بهم ان يحيوا حياة سداها العوز ولحمتها الحرمان .

ولم تكن حياة الاديب في اوربا قبل اكتشاف المطبعة خيراً منها في الشرق ، فقد كانت النعمة سابغة على اولئك الذين نالوا حظوة في بلاط الملوك — وهم افراد قليلون — واما الباقون فظلوا يعانون آلام البؤس والحرمان .

ولعل الازدهار الحديث لصناعة الادب في الشرق والغرب يعود بالدرجة الاولى الى سببين جوهريين وهما اولا اتصال الاديب المباشرة بجمهرة القراء والفضل في ذلك يعود الى نعمة الطباعة ، وثانياً انتشار العلم بين مختلف الطبقات وزوال الامية فكثر بذلك عدد هؤلاء القراء ، واصبح بوسع الكاتب والشاعر ان يعتمد على الالوف بل الملايين ، يغذيهم بادبه ويغذونه بالمقابلة باسباب معاشه .

ولقد كان القسط الاوفر من الرواج والنجاح من نصيب القصة التي تصادف هوى في نفوس الجماهير فيقبلون على مطالعتها وكان

من اثر ذلك ان اثرى القصصيون إثراء يحسدهم عليه زملاؤهم من أرباب المهن الحرة ، فهذا السر ولتر سكوت القصاص الانكليزي الكبير الذي استطاع — من ريع قصصه — وفاء ديون ابيه وجمع ثروة طائلة تقدر بمئات الالوف من الجنيهات ، ولا يزال ورثتـــه يعيشون من ريعهــا حتى اليوم ، وهؤلاء هم القصاصون الفرنسيون امثال اناطول فرانس واندريه موروا وغيرهمـــا فانهم استطاعوا بفضل كتبهم التي تطبع بمئات الالوف وبالملايين احيانا — ان ينعموا بالعيش الناعم والرخاء والترف . هـــذا بصرف النظر عن الادباء الاميركيين حيث يلعب الدولار دوره العظيم .

دفعني الى التحدث عن نعمة الادب في الغرب هذه النغمة التي ما يزال ادباؤنا يرددونها هنا وفي سوريا ومصر والعراق ينحون فيها باللائمة على الحكومات العربية تارة لانها لا ترعى الادب الرفيع ولا تقدره حق قدره ، وعلى جمهرة القراء تارة اخرى ، الذين لايشجعون الانتاج الادبي ولا يناصرونه .. ويخلص هؤلاء المتظلمون الى القول بان الاديب بائس في شرقنا العربي وان حرفـــة الادب التي كانت تدركه في العهود الماضية ما تزال محيقة به اليوم .

انا اختلف كثيراً مع هؤلاء الادباء ، فانا لا اطالب الحكومات بهذه الرعاية لاني لست اؤمن بهـــذا الادب الرسمي يحمل طابع الحكومات فيصبح بمقتضاه اديبنا بوقاً من ابواق المناسبات ..

وانا لا اطالب جمهرة القراء بالتطوع في مناصرة الادب رحمة بالاديب وشفقة عليه ، فانت تزري بالادب اذ تهبط به الى هـــذا المستوى .

ولكني اعتقد جازمـــاً ان الاديب الحق كالطبيب الناجح وكالمحامي اللامع يستطيع في عصرنا الحاضر – بعـــد ان انتشرت الطباعـــة وكثرت دور النشر وتسهلت المواصلات بين الاقطار العربية وتضاعف عدد القراء – ان يشق طريقه في زحمة المتأدبين وان يعيش بشرف بل برخاء اذا كان في انتاجه الادبي من الحياة والصدق ما يجعله خليقاً بالمطالعة . واما اولئـــك الكسالى الذين يعيشون على ماض ادبي كانت لهم فيه صولة ، ويعجزون اليوم عن الاتيان بالادب الجديد الذي يتفق ومقتضيات العصر فانهم اولى بالشفقة منهم بالمناصرة وخير لهؤلاء وللادب ان ينصرفوا الى مزاولة اعمال اخرى ويتركوا الادب للادباء المجددين المنتجين .

ولعلي لا اعدو الحقيقة حين استشهد بطه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد والمازني والزيات واحمد امين وعلي محمود طـه وحسين هيكل والصاوي وغيرهم دلالة على ان الادب يدر عـــلى الاديب مالاً يجعله في نجوة من التزلف والتملق فيفرض نفسه فرضاً على جمهرة القراء ...

اعطوني قصة عربية ناجحة وانا اضمن لكاتبها الربح الوفير ...

بل اعطوني كاتباً بارعاً في كتابة القصة الصغيرة — لا يقلد فيها الفرنجة — وأنا أكفل له النجاح والعيش الرغيد .

اجل لم يعد الادب محنة تعتري الادباء العرب وانما هو نعمة وبركة اذا كان يحمل الطابع الشخصي واذا كان مستمداً من صميم الحياة ...

ولدوا فتعذبوا فماتوا ..

●

بين القارىء والكاتب اليوم مشادة ، اشعر بها تماماً ككاتب وكقارىء في وقت معاً ، أساسها الخوف المتبادل بين الاثنين : خوف القارىء من الخيبة بعد قراءة مقال طويل ، وخوف الكاتب من احجام القارىء عن تلاوة المقال ولا سيما اذا كان طويلاً ايضاً .

فالقارىء اليوم كثير الاعمال ، ضنين بوقته لا يبدده جزافاً في مطالعة ما قد لا يستسيغه ، فتراه يقف حائراً أمام هذا الفيض العظيم المتواصل من خواطر الفكر من صحف ومجلات وكتب تطلع علينا في مختلف ساعات النهار وفي مختلف ايام الاسبوع وفي مختلف اللغات ، وهو يود ان يعلم قبل المغامرة في قراءة المقال أو الكتاب — أجل فالمطالعة مغامرة ! - ما إذا كان فيهما ما يستحق القراءة ، فكم من مرة وقفت متردداً حيال مقال طويل اراود نفسي على مطالعته ، أهم بالبدء ثم أتراجع خائفاً مذعوراً من هذه الاعمدة المرصوصة المتلاصقة من الحروف السوداء الصغيرة ، وكم

من مرة أقدمت متوكلا على الله وعلى شهرة الكاتب او العنوان الجذاب المقال ، فاضعت من اوقاتي ساعات غالية لن أسامح بها هؤلاء الكتاب ..

وقد شعر أوغست كونت منذ مائة عام هذا الشعور نفسه فلم يجد أنجع من السلبية يعالج بها هذا الداء ففرض على نفسه « الحمية الادبية » وقضى السنوات الاخيرة من عمره لا يقرأ كتاباً جديداً ولا يطالع في صحيفة او مجلة ..

واما كتابنا اليوم فقد أصبحوا – ولله الحمد كأبي تمام عندما سألوه قائلين : ان في شعرك الغث والسمين فلماذا لا تهذبه وتحذف منه الردىء وتبقي على الجيد .. فاجابهم – رحمه الله – :اشعاري كاولادي بينهم الجميل والقبيح ، الصالح والرديء وكلهم غال عليّ ، حبيب الى قلبي !

وكذلك الكاتب فانه ضنين ببنات افكاره حريص على ان يفرضها فرضاً على ضحيته القاريء المسكين ، لا يبالي طال المقال أم قصر بشرط أن يلبس خواطره – دون تفرقة بين المبتكر او المعاد او بين الصالح والرديء – اشكالا مادية من الحروف السوداء يملأ بها الطروس .. ثم ألم تصبح الكتابة تجارة ، لها سوق رائجة ، فطغى روح الكسب على الفن وعمرت خزائن بعض ادبائنا – من ذوي الشهرة – بمقالات جاهزة تنتظر الزبائن فاذا تلقى

الاديب التاجر طلباً من احدى المجلات مد يده الى جارور واخرج المقال لا يبالي به طويلا كان أم قصيراً غثاً أم سميناً وذيله بتوقيعه وقذف به الى المطبعة هذه الآلة الطيعة التي كانت فيما مضى نعمة وبركة على الحضارة الانسانية فاصبحت في كثير من الاحيان نقمة بما تفيض به على المجتمع من السخف والهراء ..

ولقد شعر كتابنا باحجام القاريء عن مطالعة ما يدبجونه من مقالات طويلة فعمدوا الى خداعه عن طريق العناوين الجذابة ، هذه الصنارات الادبية تحمل الواناً شهية من الطعوم يقع ضحيتها القاريء الساذج وغير الساذج احياناً .

انا لا أنعي على القاريء رغبته في الايجاز فهو يعيش في عصر شعاره السرعة في كل شيء ، ومشاغله كثيرة ومطاليب حياته المتنوعة لا تترك له متسعاً من الوقت للمطالعة فمن حقه ان يطلب الجرعات الصغيرة المليئة ، ولكني أنعي على كتابنا المحدثين هذا التطويل الجاني يبدو في معظم ما يكتبون ، وهذا الاطناب الفارغ يحملون فيه الفكرة فائضاً من الالفاظ ويعيدون المعنى نفسه باساليب مختلفة .

واذا قلت لهم اوجزوا ، خففوا عن ضحيتكم القاريء ، واذهبوا تواً الى الفكرة الرئيسية دونما هذه المقدمات واسبكوها بوضوح وايجاز .. هزوا برؤوسهم ومناكبهم ساخرين ، فالفكرة

– في نظرهم – لا بد لهـــا من توسيع وتبسط وتدرج يهيء ذهن القارىء .. وفاتهم ان عصر القنبــلة الذرية يختلف عن العصور الوسطى السخية باوقات الدعة والفراغ والراحة ..

وعبثاً حاولت اقناع اصدقائي الكتاب والادباء بالعدول عن هذا الاطناب والتطويل .. وعبثاً لخصت لهم صفحاتهم في اسطر معدودات فهم يعتقدون انني أشوه ما يكتبونه حين أحاول اختصاره

لا انسى هذه الحكاية قرأتها منذ أعوام لكاتب فرنسا العظيم اناطول فرانس قال :

رغب شاه ايران يوماً ان يطلع عـــلى تاريخ بلاده فاستدعى كبير المؤرخين في زمانه وطلب منه أن يضع له تاريخاً يستعرض فيه مآثر اجداده الاكاسرة العظام فاستمهل المؤرخ المليك سبعة اعوام لوضع هذا السفر النفيس فكان له ما اراد ..

وبعد انقضاء السنوات السبع جاء المؤرخ بسبعة جمال يحمل كل منها مجلدين ضخمين ، وانزل حمولتها بـــين يدي الشاه الذي وقف مذعوراً أمام هذا التل من المجلدات ينظر تارة اليها وتارة الى المؤرخ ثم قال :

– ما هذا ؟ يستحيل عليّ قراءة هذا التاريخ .. هيا .. اختصر .. يا صاحبي .. اختصر ! .

وطلب المؤرخ سبعة اعوام جديدة عاد بعدها يجر بعيراً واحداً

يحمل مجلدين ضخمين فنظر الملك اليهما آسفاً وقال للمؤلف العجوز :

- اختصر . يا صديقي ..

- سمعاً وطاعة .. ولكن هذا يحتاج الى سبعة اعوام أخرى ..

وكان له ما اراد فعاد بعدها يقود جحشاً يحمل مجلداً واحـــداً ضخماً والقى به بين يدي الشاه ، وكان قد طعن في السن ، وقال:

- هذا يا مولاي منتهى الايجـــاز .. فهز الملك رأسه بيأس وقنوط وقال :

- اختصر ..

- سبعة أعوام جديدة يا مولاي !

- لك ما تريد .. ولكن أسرع فاني أخاف أن يدركني أجلي قبل الاطلاع على تاريخ آبائي واجدادي ..

وانقضت الاعوام السبعة فاقبل المؤرخ يدب دبيباً على الارض، وعلى كتفه مجلد متوسط الحجم ، وكان الملك على فراش الموت فلما رآه مقبلاً ناداه :

- اسرع .. اسرع يا صديقي .. فاني احتضر ..

واقترب العجوز وحمل الكتاب بيديه المرتجفتين وقدمـه الى مليكه .. فدار بينهما الحوار التالي :

- هذا المجلد يا مولاي معجزة المعجزات في الايجاز ..

- نعم .. ولكني احتضر .. وسأموت ويا للاسف قبل ان

اطلع على تاريخ اجدادي ..

ـ لا .. يا مولاي.. سوف اختصر لك تاريخ آبائك واجدادك في ثلاث كلمات : « ولدوا فتعذبوا فماتوا .. »

ومات الملك ومات الفيلسوف ..

☆

لست أدري ما اذا كنت قد احسنت في اختيار هـذا المثال عن روعة الايجاز ، ولكني - عـــلى كل - قرات ما تيسر من كتب التاريخ فلم اخلص منها بخير من هذه الفكرة يسوقها اناطول فرانس باسلوبه الطريف لتأريخ حياة البشر ..

وبعد فهذه فكرة ، خالفت في سردها على مسامعك المبـــدأ الذي ادعو اليه ، ولكن ما العمل ، وهذه محطة الاذاعة الكريـة تحتم علي أن أتحدث ٧ دقائق،فقد تحدثت اليك في ٧ دقائق ما يمكن قوله في ٦ دقائق بل في ٣ دقائق بل في دقيقة واحدة .. بـل في جملة واحدة .. اختصر ايهـــا الكاتب أو المتحدث واوجز ترحم ضحيتك القاريء أو المستمع المسكين ! ...

أدب نغل يلبس سروالا ممزقا وقبعة بالية !

●

ذلك هو الادب عند فريق من المتأدبين في هذا البلد ، حملة التجدد واعداء القديم !..

أدبٌ نغلٌ يلبس سروالا ممزقاً وقبعة بالية !..

أنكروا العروبة — وهي اصلهم وهم ابناؤها وورثتها وحملة مشعالها — وعزفوا عنها فلم يبق لهم منها سوى سروال ممزق عجزوا عن ترقيعه ، واندفعوا اندفاعاً اعمى وراء الادب الغربي فلم يظفروا منه باكثر من قبعة خلقة بالية !..

أرأيت اولئك العمال البائسين في منعطفات شارع المعرض في بيروت وقد ارتدوا القبعات العتيقة — من كاسكيت ، وفلين ، وبورسلينو ، وبيريه — وعليهم السراويل البلدية السوداء او الزرقاء الممزقة والسترات الاوروبية الحديثة الرثة ، وهم حفاة الاقدام ؟...

والله ما رأيت مرة هؤلاء المساكين في اطمارهم إلا وتخيلتهم نماذج حية متحركة لبعض القصائد الجديدة والقطع الادبية - التي هي —

من صميم الحياة !..

✡

وشعار هؤلاء التقليد الاعمى لكل ما هو غربي لا يفرقون بين غثـــه وسمينه ، تقرأ نثرهم فيذكرك ببراميم الحكومة – تكتب بالفرنسية وتترجم بركاكة موفقة الى العربيـــة ، وتطالع قصصهم فيذكرك بأقاصيص رخيصة قرأتها في بعض الصحف الاجنبية اليومية منها والاسبوعية ، سطا عليها هؤلاء فمسخوها واسبغوا عليها حـلة رثة من اساليب التجديد المبتكرة !..

خذ مني هذا المثال عن تقليدهم العجيب .

تصدر في فرنسا مجلة ادبية اسبوعية كبرى اسمها « كانديد » – وكانديد هذا بطل قصة لذيذة لفولتير – وفي كل عـدد منها مقال رئيسي يحمل توقيع « كانديد » اي الساذج ، فلماذا لا يكون لنا في بيروت مجلة ادبية ولا اقول كبرى ؟ ولماذا لا يكون لنا فيها كل اسبوع مقال رئيسي ؟ ولماذا لا يحمل هـذا المقال الرئيسي توقيع « كانديد » او ساذج ؟!

هذا الذي كان ، صدقني !

ولا اكون مخطئاً الا اذا كانت المجلة الفرنسية هي التى قلدت مجلتنا العربية ، كما يقلد المذيع في راديو القـــاهرة لهجة المذيع في راديو القدس ونبرات صوته !.

اما شعرهم فلا استطيع ان اقول عنه شيئاً كثيراً لاني لا افهمه. وليس الذنب ذنبي اذا كنت هذه المرة ساذجاً - عفواً فقد طغت عليّ موجة التقليد - فلم أفهم هذا الشعر الرمزي !

ولعلي لست فريداً في هذه السذاجة فقد شاطرني فيها نفر من اصدقائي في العراق ومصر وسورية وصارحوني بانهم لا يفهمون هــــذه الطلاسم ، ولعلك يا قارئي تنضم الى صفوفنا بعد تلاوة هذه المقاطع الرمزية :

يا صخور الذهول في نهر ابراهيم عفواً لدمعـــة خرساء
فلذ انت من اساطير حب باقيات من سكرة القدماء
ملء اجراحها الثقـال فضاء مخصب بالعرائس الاشلاء
خلت فيه القديم ملّ وجوماً وانثنى جاهشاً بوجه القضاء
يندب المجد فيأ الارض والبحر وشك القباب ملء الهواء
يندب الراية الرضى انتفضت زهواً بقلب الآفاق والاجواء
مزق الصبح ، مزق الشمس بالآه فعادت اصداؤها بالدماء
واذا الحب جرر الجانح الذابل فانشد الصباح لحن المساء

☆

فالبرايا مثل ازورار عن الهدي ومثل اختلاجة وانقضاء ،
والهدوء الرحيب والقيظ والنار انهيار الفضاء فوق الفضاء!..

☆

كان شيوخ ابن خلدون يعيبون على المتنبي تعقيده وخروجه على المألوف في صناعة الشعر ، ويقولون على شعره انه ليس من الشعر في شيء . ومع ذلك فالمتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس ونال مرتبة الخلود !

وقديماً قالوا لأبي تمام : « لم تقول ما لا يفهم ؟ » فاجابهم — رحمه الله — : « لم لا تفهمون ما يقال ؟ » .

فلم لا يكون موقفنا من هؤلاء الرمزيين موقف مشايخ ابن خلدون من المتنبي ، وموقف السذج من شعر ابي تمام ؟ ..

نسوق هذين المثلين ليطمئن الرمزيون ان كلمتنا هذه لن تحول بينهم وبين الخلود !.

*

واعجب ما في الامر ان هؤلاء واثقون من نبوغهم وعبقريتهم فاصبحوا لا يعجبهم شعر أو نثر ما لم يكن من طرازهم متلائماً مع تجديدهم !..

فمن هو شوقي ؟ مقلد سطحي !. وحافظ ؟ نظام بارع !. وطه حسين ؟ ثرثار مهذار !. والرافعي ؟ متقعر عتيق !. والزيات؟ منمق الفاظ !. واحمد امين ؟ واعظ ممل !.. والزهاوي ؟ شيخ يهرف !.. والاخطل الصغير ؟ مائع مخنث!..

واما ادبهم هم فهو الادب الحي لانه من صميم الحياة ..

لا تنس يا صاحبي اذا مررت بشارع المعرض ان تستعرض اولئك العمال المساكين بسراويلهم الممزقة وقبعاتهم البالية!. تأملهم جيداً فهم صورة ناطقة لادعياء الادب !..

مشهد رائع ومن صميم الحياة ..!

ضحك !...

•

لست أعرف مشهداً يستدعي الشفقة والضحك مثل رؤيتك صديقين حميمين يتبادلان ألوان الاطراء والمديح جهاراً على المنابر وصفحات المجلات وفي حقول الصحف !

ولقد كنت فيما مضى أضحك كثيراً عندما كنت – من غير اليوم – اطالع في مجلة السياسة الاسبوعية مقالات طه حسين في حسين هيكل ، ومقالات حسين هيكل في طه حسين ، يتبادلان بسخاء آيات الثناء والاعجاب ، وكيف انسى قول احدهما : « وانك يا صديقي لموفق وموفق جداً في بحثك الممتع عن ... » فيجيبه الآخر : « وانك يا صاحبي لمصيب فيما ذهبت اليه في مقالك الاخير عن ... » الخ الخ ...

ولعل أضحك مشهد رأيته بين هذين الاديبين المشهد الآتي :

اصدر حسين هيكل كتاباً عن جان جاك روسو فقرظه طه حسين تقريظاً بليغاً : فالكتاب آية من آيات الابداع ولم ير فيه

طه حسين سوى مأخذ واحد وهو رداءة الطبع ورداءة الورق !

اشتريت نسخة من كتاب هيكل عن روسو وقرأته فلفت نظري فيه فصل كبير عن آراء روسو في اقاصيص لافونتين ، فهيكل يزعم ان روسو قال في كتابه « اميل » ان خير ما يقرأه الاطفال حكايات لافونتين لبساطتها وسهولتها وجمال اسلوبها !...

وقفت حائراً امام هذا الرأي الغريب فانا اعلم من مطالعاتي السابقة لكتاب « اميل » ان رأي روسو في هذا الموضوع مناقض تماماً لما جاءنا به هيكل . رجعت حالا الى كتاب «اميل» فاذا فيه فصل كامل يحمل فيه روسو على الذين يضعون حكايات لافونتين بين ايدي الاطفال ويختتمه مخاطباً لافونتين :

« لنتفق يا مسيو دو لافونتين ، اني اعدك ، فيما يخصني ، بان اقرأك واحبك وأتثقف من حكاياتك ، لأني ارجو الا اخطىء في ادراك اغراضها ، واما فيما يختص بتلميذي «اميل» فاسمح لي ألا ادعه يطالع واحدة منها ما لم تثبت لي انه يستفيد من مطالعته اشياء لا يفهم منها ربعها !... الخ ... » *

« Composons monsieur de la Eontaine. Je promets, quant à moi, de vous lire avec choix, de vous aimer, de m'instruire dans vos fables,car j'espére ne pas me tromper sur leur objet; mais pour mon élève, permettez que je ne lui en laisse pas étudier une seule jusqu'à ce que vous m'ayez prouvé qu'il est bon pour lui d'apprendre des choses dont il ne comprendra pas le quart... etc... »

اني اقسم لك بمنزل الوحي الذي حج اليه هيكل مؤخراً ، إن هيكلاً الف كتابه عن روسو ولم يقرأ كتاب « اميل » وهو من اشهر مؤلفات الفيلسوف ، اذ ليس من المعقول ان يكون قد قرأ « اميل » واطلع على نقد روسو لحكاية الثعلب والغراب وما فيها من تهكم لاذع على لافونتين ثم يزعم ان روسو يرى حكايات لافونتين خير ما يطالعه الاطفال !...

انا افهم ان يؤلف هيكل كتاباً عن روسو دون ان يقرأ كتاباً من كتبه ، فهذا معقول وقد تعودنا ان نراه عند كثيرين من كتّاب هذا العصر !...

ولكن الذي لا افهمه مطلقاً ان يقرظ طه حسين كتاب هيكل عن روسو فلا يأبه لما فيه من اخطاء ومناقضات وتشويه ، ولا يرى - وهو الضرير - سوى رداءة الطبع ورداءة الورق !...

☆

كنت فيما مضى اضحك من رؤية حسين هيكل وطه حسين يتبادلان الثناء والاعجاب على صفحات المجلات ، وكان ذلك في عهد مضى . ولكن ما ذنبي اذا كان الدهر يحب ان يجدد لي هذا الضحك فقد وقع بين يديّ صدفة عدد من مجلة « المكشوف » الغراء فلفت نظري فيه صفحة كاملة تحتوي على آراء الادباء في منشورات دار المكشوف العامرة

ليس في هذا ما يضحك فهو نوع من انواع الدعاية «أو الدعاوة» – كما تريد – ولكن المضحك ان نرى في هذه الصفحة اصدقـــاء حميمين يتبادلون الثناء على طريقة طـــه حسين – حسين هيكل، فتوفيق ي عواد المعجب بلطفي حيدر في كتابه «عمر افنـدي» يقول عنه: «قطع في البيان العالي الرشيق، ولوحات من التصوير الصادق البارع، وغوصات عميقة على النفس ووقفات شاعر أمـام الاشياء عارف باسرار الجمال !...»

فينبري لطفي حيدر مقرظـاً كتاب عواد «قميص الصوف» قائلاً: «الاستاذ عواد كاتب انساني، يمر بالحادثة البسيطة تقع كل يوم وتراها كل يوم في البيت وعلى قارعة الطريق فتحسبها تافهة لاتلفت النظر فيأخذها الى مصنعه ليعيدها اليك تحفة خالدة من روائع الفن !»

ثم يقرظ خليل تقي الدين كتاب عمر فاخوري ويقرظ توفيق عواد كتاب خليل تقي الدين، ويقرظ عمر فاخوري كتاب لطفي حيدر الخ الخ...

والخلاصة، ان عمر فاخوري معجب بلطفي حيـدر، ولطفي حيدر معجب بتوفيق عواد المعجب بخليل تقي الدين المعجب بعمر فاخوري الى آخر السلسلة !...

والحقيقة اني لا اود ان انتقص قدر احد من هؤلاء الادباء فانا ايضاً معجب بهم وبتحفهم الفنية الخالدة، ولكن اعجابي هـذا لا

يمنعني من الضحك !...

*

يصف الاديب الانكليزي تشارلز ديكنز مأدبة اقامتها جمعية اصدقاء اليتيم في لندن وقد وقف فيها رئيس الجمعية وخطب مشيداً بفضل حضرة نائب الرئيس وخدماته الجلى للجمعية ، فنهض نائب الرئيس وقال ان الفضل الحقيقي في نجاح الجمعية يعود في الدرجة الاولى الى جهود حضرة الرئيس المحترم والى جهود حضرة الكاتب العام ، فانبرى حضرة الكاتب العام واشاد بفضائل الرئيس ومآثر نائب الرئيس ولفت نظر الحضور الى خدمات امين الصندوق ، فوقف امين الصندوق متواضعاً واخذ يعدد محامد الرئيس ونائب الرئيس والكاتب العام وشرب نخبهم ، ثم اشار الى انه لا يجوز اغفال جهود مدير الميتم !! . وهكذا كان الخطباء يتعاقبون الواحد بعد الآخر ، وكل منهم يمدح زميله ، والجمهور يصفق ، وصاحبنا تشارل ديكنز واجم يتحمل هذا اللون من الوقاحة بضحكته الساخرة !

وبعد فيا صديقي ، اذا ما رأيت بعد اليوم جماعة من الاصدقاء والاقارب يتبادلون علانية عاطر الثناء ، فاذكر مأدبة ديكنز !...
واذكر ايضاً جماعة الغَجَر (النَوَر) المعروفين بتبادل الثناء !..
واضحك دائماً ...

ملاعق من فضة !..

●

لستُ أعرف عن حداثتي الشيء الكثير ، ولكن والدتي تقول انني ، في السادسة من عمري ، كنتُ شديد الفضول أكثِرُ من طرح الأسئلة على الناس فيما ينفع وما لا ينفع ، وفيما يعنيني وما لا يعنيني،وتقول انني كنتُ أسأل أحياناً عن أشياء لا يجوز السؤآل عنها ، وكثيراً مـــا أحرَجتْ أسئلتي المزعجة والديّ والسامعين فأدّتْ بي وبهم إلى مواقف ، بعضها مضحك وأكثرها مؤلم !..

وتروي والدتي من انبائي هذه حكايات طريفة حفظتُها لكثرة ماسمعتُها منها،ولستُ أرى غضاضة في نقل بعض هذه الذكريات إلى الناس لا لِأنها صور واقعية و « من صميم الحياة ! » ، ولكن لأني أجد لذة كبرى في الاعـــتراف بعيوبي ومساوئي إلى أمثالي من البشر الخاطئين !..

كم كنتُ أتألم ، وأنا طفـل ، لأولئك النسوة اللوائي تَشقّ الداية بطونهنّ حين الوضع ، إذ لم يكن من الحشمة أن أعرِف عن

الولادة في تلك السن - جواباً على أسئلتي الكثيرة - أكثر من تلك العملية الجراحية المخيفة !.. وكان صراخ النساء وهنّ يُعانينَ آلام المخاض يؤكد هذه النظرية فقبلتُها على أنهـا صحيحة ، وتألمتُ كثيراً لأني لم أجد غير هـذه الوسيلة الشاقة لخروجي إلى هذا العالم ، وفيما بعد ، عندما قصّ علينا معلمنا الشيخ في الكتّاب حكاية سيدَينا آدم وحواء ، حسدتُ أمنا حواء لأن الله خلقها من ضلع سيدنا آدم ، وتمنيتُ لو أن الله كفى والدتي الغاليـة آلام الشقّ وخلقني من ضلع والدي ، على طريقه حوّاء !...

دُعينا ذات يوم إلى العشاء عند جمـاعة من أصدقاء الأسرة ، وكانت الوليمة فاخرة ، جلس فيها الرجال أولاً إلى مائدة أنيقة ، وبقيت النساء في الحجر الملاصقة يتلصصن من ثقوب الأبواب على المدعوين ويتساءلن عن أسمائهم ، وتُسر الواحدة إلى رفيقتها همساً رأيها في هذا وملاحظتها على ذاك ، وأنا بينهنّ أستمع إلى آرائهنّ وهنّ يعتقدن أني - لصغر سني - لا أفهم مراميها البعيدة !..

وما أن فرغ الرجال من الطعام حتى هرع الخدم وأهل المنزل يصلحون الصحاف ويعيدون إليها ازدهارها بإضافة مـا تبقى في القدور ، ويغسلون الآنية والأقداح استعداداً لدعوة النساء. وكان نصيبنا ، نحن الأطفال ، أن نجلس إلى مائدة النساء فاحتللت مقعداً إلى جانب والدتي وجلست المدعوات والمضيفات حول الخوان وهن

يرفلن في أبهج ملابسهن، وكانت الأنوار تشع من الثريات فتنعكس على الصدور العامرة بالجواهر والرمان، وعلى الملابس الحريرية المقصبة وعلى الآنية الفضية، نور على نور !..

لا أزال أذكر هذا المشهد وأحنّ إليه رغم بُعد عهدي به ! والمؤلم أني نعمت بهذا النعيم في وقت ما كنتُ أستطيع فيه تقدير روعته، وحرمت منه ـ كسائر الأطفال ـ عندما بدأ قلبي يخفق بالحياة !..

لم تبهرني أصناف الطعام الشهية ولا الصدور العامرة ولكن الآنية الفضية البرّاقة هي التي أخذت بمجامع لبي وأثارت كامن فضولي فطرحتُ على ربة الدار السوآل الآتي :

ـ أنّى لكم هذه الملاعق الفضية الجميلة يا سيدتي ؟ كيف حصلتم عليها وبكم اشتريتموها ؟..

كان لسوآلي هذا وقع مضحك عند السيدات لسذاجته، أما والدتي فقد تغيّر لونها وامتقع ووقفت اللقمة في حلقها وقرصتني بفخذي، خلسة ومن تحت المائدة قرصة لا أزال حتى اليوم أذكر ألمها !..

وكانت صاحبة الدعوة لبقة فلاحظت اضطراب امي فخففت عنها بقولها :

ـ « بسلامة خيركم » يا ام فلان .. ، ما ألطف هذا الغلام أنه

يودّ أن يعرف كل شيء !..

ثم غيّرتُ موضوع الحديث ولكن الكآبة لم تبارح والدتي طيلة السهرة وكانت نظراتها إليّ ناطقة بعزمها على مناقشتي الحساب فور عودتنا إلى المنزل !..

*

والواقع أني كنتُ أشدّ من امي شوقاً للعودة إلى المنزل لأعلم ما الذي دعاها إلى هذا الاستياء من سؤآلي !..

قصّت والدتي القصة على والدي بعد ان بالغت فيها كثيراً شأن النساء — دون أن تسمح لي بمقاطعتها لتصحيح حديثها أو نفي بعض التهم التي نسبتها إليّ ، فقد سألتهم — كما زَعَمَتْ — عن ثمن الثريات وعن ثمن الملابس الحريرية وعن ثمن الآنية الفضية وعن أجرة المنزل والخدم . وو.. واتهمتني أيضاً بأني كنتُ آكل بشره ونهم كالمعدمين الذين لم يذوقوا في حياتهم طعم الدجاج !..

وكان أبي يهزّ رأسه ويظهر استياءه وكانت نظراته إليّ تنم عن اعتقاده الراسخ بأني مخلوق لا يرجى منه خير !..

ولما تعبت والدتي من الكلام وجدتُ متسعاً — بين تنهدتين — لطرح سؤآلي فقلتُ لها :

— لستُ أرى في سؤآلي عن ثمن الملاعق الفضية ما يستوجب غضبكِ إلى هذا الحدّ !..

فقاطعتني قائلة :

– لستَ ثرثاراً فضولياً فحسب ، ولكنك أبله ، غبي !. ألا تعلم ان سؤالك عن الملاعق يدل على انك لم ترَ مثلها في حياتك ، أو أننا – على الأقل – لا نستعمل مثلها في منزلنا ، فاظهرتنا أمام الناس بمظهر الفقراء !..

– ولكن يا امي ، هذا صحيح ، فنحن لا نملك مثل هذه الملاعق ، ولسنا مثلهم أغنياء ، فلماذا تريدين أن نظهر أمام الناس على غير حقيقتنا ؟

هنا ثار ثائرها فالتفتتْ نحو والدي وقالت له : – لستُ أدري ما هو الذنب الذي اقترفناه في صبانا – أنتَ أو أنا – حتى بلانا الله بهذا الغلام البليد الذي لا يفهم اللياقات ولا يحسن التصرف بين الناس !..

أوى كل منا إلى فراشه ، فأما الوالدان فتحدثا قليلاً عن المستقبل المظلم الذي خبأته الاقدار لطفل لا يعرف مجاملة الناس ومصانعتهم ، وأما أنا فحلمتُ بالملاعق الفضية وأكلتُ بها على مائدة الخيال طيلة الليل !..

*

غفر الله لوالدتي العزيزة ، أنها أرادت أن تُعرّفني ، في السادسة من عمري ، إلى أسرار هذا المجتمع الفاسد ، وأن تجعلني جزءاً منه

فتعودني الظهور بين النـــاس على غير حقيقتي ؛ أرادت – ونيتها حسنة – أن تعلمني الرياء والمصانعة والكذب، ابرز ميزات مجتمعنا، فأبيتُ واستكبرتُ وأصررتُ وقاومتُ وفارقتْ والدتي الدنيا وفي قرارة نفسها ألم لاخفاقها !..

لقد تغيرتُ كثيراً منذ ذلك الحين ، وأفهمتني تجاربي هـــذا المجتمع على حقيقته !.

رحم الله والدتي رحمـــة واسعة ، لو اتيح لها أن تعيش لتراني اليوم ، وترى سلوكي بين النـاس ، وتسمع أحاديثي عنهم ، وتقرأ آرائي فيهم، لأنكرتني ودهشت من تطوري العجيب ولقالت لي:

– لقد خطوتَ بعيداً يا بني !...

شغل الليل !..

●

عودني أهلي منذ صغري الخوف من الظلام ، وكنت أسمع منهم ان الجن والمردة والعفاريت لا تخرج الا في الليل ، فتختبىء خلف الجدران وتكمن في المنعطفات وتباغت السابلة، وهي مولعة بصغار الأطفال الذين يعصون أمر والديهم فتخطفهم وتحملهم على قرونها وتطير بهم في الجو وتذيقهم الوان العذاب قبل ان تبتلعهم !.

وكان في بيتنا جارية سوداء عجوز اسمها مرجـانة ، فدخل في رُوعي لكثرة ما سمعته من أنبـاء الجن انها على اتصال دائم بهم ، فكنت اخافها كثيراً وأطيعها اتقاء لشرها . ورغم انها كانت تتود الي وتعطف علي فقد كنت أنفر منها . وعلى الخصوص عندما كنت أراها في الظلام فيختلط لون جسمها بالسواد فلا يبدو منهـا سوى عينيها البراقتين !.

ولقد روت لي مرجانة ان عالم الجن اكبر من عالم الانس، وان للجن ملوكا وملكات ، وان بينهم جماعـــة صالحين يؤمنون بالله ،

وجماعة من الكفرة الفجرة يكيدون في الارض ويفسدون فيها ويسفكون الدماء ، وقصّت علي أنباء حروبهم مع الملائكة ، وأتت في حكاياتها على ذكر عاصمة الجن «عبقر» وابطالهم «عضرفوط» و «عسر» وسواهما ، واسماؤهم - على ما اذكر - تنتهي بلفظة «طيش» ، وكانت تروي لي طرفاً من أحاديثهم بلغة غريبة لا افهمها - لغة الجن - فيقشعر بدني ولكن مرجانة علمتني انني إذا استعذت بالله العلي العظيم استطعت طرد الجن مهما بلغ عددهم ، فكنت استعيذ بالله كلما سرت في الظلام وحدي !.

وهكذا اصبحتُ - بفضل الاستعاذة - في مأمن من الجن ، فلم أتصل بهم ولم يتصلوا بي ولم أزرْ عاصمتهم «عبقر» ولم اقعد منها مقاعد للسمع فأستمع الى عزيف الجن ، فحُرمتُ العبقرية ويا للأسف !... وتركتها وقفاً مشاعاً على شعراء هذا العصر يزورون «عبقر» وينهلون منها ما يشاءون ويتحفوننا بشعر عجيب هو أقرب في لفظه ومعانيه وطلاسمه الى الجن منه الى الانس !.

اولئك العباقرة نسيج وحدهم يعيشون في عالم غير عالمنا ، ولكنهم - على ذلك - يستحقون الشفقة !...

*

سألت العبدة مرجانة ذات يوم :

- لماذا أنت سوداء ؟..

فتبسمت واجابتني بصوتها العريض :

– لأن الله خلقني كذلك !. وانت لماذا خلقك الله ابيض ؟.. أتريد انْ تسخر من صنع الله ؟..

وانصرفت مرجانة زعلانة !..

اما انا فلم أجد جوابها المبهم شافياً لكامن فضولي فأخذت افكر في سر بياض بشرتنا وسواد بشرة العبدان الى ان توصلت بسذاجتي الى نظرية بدت لي مقنعة فأحببت ان اشرك والدتي معي في الرأي فهرعت نحوها وقلت لها :

– الا تظنين يا أماه ان مرجانة سوداء لان الله خلقها في الليل؟..

ضحكت والدتي من سذاجتي البريئة وضمتني الى صدرها وقالت :

– اصبت يا بني ان مرجانة « شغل الليل » ، وشغل الليل يكون دائماً أسود !...

✡

دخلتُ بعدها الكتّاب وهداني استاذي الى سر سواد العبيد فقال انهم ينتمون الى حام بن سيدنا نوح عليه السلام وسمعتُ منه حكاية الطوفان وكيف غضب سيدنا نوح على ولده حام فدعا ربه ان يجعله هو وذريته سوداً فحل عليهم غضب الله واسودت جلودهم وغلظت شفاههم وباؤا بالخسران المبين !

ودرستُ فيما بعد في الجامعة اثر الأقاليم في لون البشر وعرفت

من اساتذتي أثر الشمس والحرارة في الاجسام، وان سكان المناطق الحارة أشد سواداً من سكان المناطق المعتدلة او الباردة .

عرفتُ حكاية « حام » ، وعرفتُ أثر الاقليم ، فعدلتُ عن نظريتي الاولى في تعليل سواد بشرة العبيد عن طريق خلقهم في الظلام، ونسيت جميع ما يتعلق بهذه القضية الا جملةواحدة ما تزال تردد في خاطري :

ــ ان مرجانة شغل الليل ، وشغل الليل يكون دائماً اسود !.

*

جملة بريئة رددتها ، وانا طفل، ويشهد الله اني ما ازددتُ تقدماً في السن واختباراً للحياة ، الا ازددت اقتناعاً بصحة هذا الحكم الساذج الذي سمعته من والدتي الغالية !.

*

هؤلاء الجبناء الذين يعملون في الظلام ويخافون نور الحقيقة ، لا يمكن ان تصدر عنهم الا أعمال مظلمة سوداء كالليل الذي يسترهم بسواده!..

اني اكره العمل في الظلام ، وأحب الذين يعملون على ضوء النهار، اني أمقت اولئك الذين يضعون أيديهم على أعينهم ليحجبوا عنها النور، ويأوون الى شياطينهم يعمهون معها في ظلمات وجدانهم، ويدسّون ويبيتون الامور ويطعنون من وراء !..

وكذلك اكره اولئك السخفاء الذين لايكتفون بنور الشمس الساطع، فيشعلون الشموع في وضح النهار يتقربون بانوارهم الهزيلة الباهتة الى الله تعالى !. .

*

اللهم انا نعوذ بك من الشيطان الرجيم، ونعوذ بك من شياطين الانس الذين يعملون في الظلام !...

هنيئا للذين يعيشون على هامش الحياة!

•

أين وُلِدتُ ، ومتى ؟

الجواب على الشطر الاول من هذا السؤال هّين ، واما الشطر الثاني فيحتاج الى تحقيق !.

ولدت في حماة المحمية ، عاصمة الملك المظفر أبي الفداء ، ومدينة النواعير والورد والرياحين ، على ضفاف العاصي الجميـــل ، تلك البلدة العربية ، الصميمة في عروبتها ، والتي قال عنها بحق موريس باريس في كتابه « الجنان على العاصي » انهـا برّية لا تؤلف ، تنفر من كل ما هو غربي وتنظر شزراً الى كل اوروبي دخيل !.

رأت عيناي النور في حماة على ازهار خمائلها الغناء ، وتفتحت اذناي على أنغام نواعيرها الشجية ، تنشد منذ آلاف السنين أنشودة الحياة ، فتوزع الماء الذي « جعل الله منه كل شيء حي » على منازل البلد وبساتينه . وكأني بهذه الخشُب الدائرة قـــد ذكرت عزها الغابر في الرياض تغنيها الاطيار وتسقيها الانهـــار فحنتْ اليه

وتحسرت عليه فرددت في غنائها :

كنتُ أسقى وأغنّى صرتُ أسقي وأغني !

*

لا أعرف على الضبط في أى عام ولدتُ ، فوالدتي تحب ان تراني دائماً صغيراً حتى تظل هي صغيرة ، وكلما أثرت هذه القضية في سمَرنا الخاص نشب خلاف بين والدتي ووالدي الذي يرغب في تكبير سني ليُغيظ والدتي ، فلا نصل في تحقيقنا العلمي إلاّ إلى جدل وشجار ، فنتفق – حسماً للنزاع – على الا نثير هذا الموضوع مرة ثانية ، ولكننا ، مع ذلك ، كنا نثيره دائماً ! ..

كانت والدتي تعلم حق العلم وتؤكد اني ولدت في عام « الثلج » يوم عاد عمي من الحج ! .. ومن سوء طالعي ان عمي هذا كان شديد الولع باداء الركن الخامس من الدين فعندما سألته يوماً عن تاريخ سفره الى بيت الله الحرام ابتسم وأجابني :

– اية حجة تقصد ؟ الأولى أم الثانية أم الثالثة ؟ .

وهنا ، وبين حجّات عمي الكثيرة ضاع الحساب ! ..

*

واذكر اني سألت والدتي الغالية ذات يوم عن شعورها عندما حملت بي ، وعن آلام الحمل التي سببتها لها فكانت تفتخر بانها لم تكن تشعر – وانا جنين في احشائها – بالآلام التي تشعر بها النساء

الحوامل ، أو التي عانتها هي حين حملت بأخي الأكبر ؛ وكانت تبتسم وتقول بلهجة العاتب المؤنب إني كنت خفيف الظل في احشائها فلم اعذبها ، ولكني - بشهادتها - عوضتها هذا العذاب اضعافاً مضاعفة عقب ولادتي لسوء سلوكي وتصرفاتي الناقصة ! .

*

لم تزلزل الارض زلزالها ليلة ميلادي ، ولم تنشق السماء ، ولم تحدث في الطبيعة اعراض خارقة ،فقد ولدت كما يولد سائر الاطفال العاديين بمنتهى التواضع والهدوء ! ..

ويظهر اني لم اكن أحسن المحافظة على المواعيد وانا جنين — شأني الآن ! — أو ربما كنت عجولاً ، لا ادري ؛ وآية ذلك اني فجأتهم بزيارتي ، فلم تكن الأسرة على استعداد لاستقبالي ، ولم يكن هناك قابلة وطبيب يلتقطان رأسي ويحيطاني بالعناية اللازمة !

ورغم اني مولود ذكر - تام التكوين ! — لا يكتفي بواحدة وعشرين طلقة من المدافع ، ولا يمد رأسه الا بمائة طلقة وطلقة — لو كان من اولياء العهود ! - فقد اكتفيت في عالم الصعاليك بطلقة واحدة قوية طلقتها والدتي ، واذا بي أتدحرج على البساط في ارض الحجرة ، وابكي لمفارقتي تلك الناحية الهادئة الدافئة ودخولي في تلك الليلة الباردة إلى هذا العالم المجهول ! ..

وكانت احدى عماتي قد أقبلت على والدتي تنظر ما الخبر ،

فرأتني عارياً ملقى على الأرض فالتقطتني ومرت بيديها الباردتين على بدني الغض فما ان ادركت ما تريد حتى تركتني وهرعت نحو والدي واعمامي وعماتي واخوتي ، والبشر يطفح في وجهها ، وهي تصيح بفرح : صبي ! صلوا على النبي ! .. صبي!..صلوا على النبي !..

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه والتابعين باحسان الى يوم الدين آمين ! ..

*

وأعجب ما في الأمر ان والدي واعمامي وعماتي ادعوا بالاجماع حين تلقوا هذا النبأ ، بأنهم كانوا واثقـــين من ان والدتي ستضع غلاماً ذكراً ، واخذت كلٌ من عماتي تذكّر رفيقتها بما تنبأت به امس : — ألم أقل لك انه صبي ؟ .. واتفق الجميع على انـــه لم يكن بأمكان والدتي ان تضع الا ّ غلاماً ذكراً لانهم لا يخطئون في تقديرهم ! .. ولو ان الله خلقني انثى — لا سمح الله — لما تغـير شيء ولقالوا جميعهم بانهم تنبأوا ايضاً بان والدتي ستضع انثى ! ..

*

هذه حكاية ميلادي وانت ترى انها عادية جداً ، ولعل ابرز ما فيها اني أجهل تاريخ ولادتي كما أجهل تاريخ موتي ، فانا لا أعلم متى جئت ولا متى أرحل ، وكلما احتفل النصارى بميلاد المسيح عليـه السلام والمسلمون بمولد سيد البشر ، وكلما أقام صديق من اصدقائي

حفلة ، يوم عيد ميلاده ، وقفتُ انظر حزينـــاً الى المحتفلين وفي اعماق قلبي غصة ألم،لاني لا استطيع ان احتفل مثلهم بيوم ولادتي !

وقد خطر في بالي ان افتري على التاريخ فانتحل لنفسي يومـاً ازعم اني ولدتُ فيه ، ولكني احجمتُ احتراماً للتاريخ وامتثالا لما تلقنته من بعض اساتذتي في الجامعة (؟) عن تقديس التاريخ ونزاهة المؤرخين ! ..

وبعد ، فماذا يضير التاريخ الطافح بالأكاذيب إذا أضيف اليه افتراء جديد ؟ .. ان تلفيق يوم لتاريخ ولادتي لاسهل بكثير من تلفيق تاريخ حقير – موجزاً كان أو مطولاً – لأمة غير موجودة!

ولكني اكره التلفيق واحتقر المؤرخين الدجالين ولذلك فقـد عدلت عن انتحال يوم لتاريخ ميلادي ! ..

*

واخيراً علامَ هذا الاهتمام بقصة ولادتي .

ان التاريخ لن يعنى بانباء النكرات أمثالي ، فهو سجل لأخبار كبار العظماء الذين تركوا في الدنيا دوياً وصيتاً ذائعاً ، وغيّروا مجرى التاريخ وعاشوا من الحياة في الصميم ! .

أما انا فلا شأن لي في ذلك كله، لاني ولدتُ وعشتُ وسأموت على هامش الحياة ! ..

*

لقد قلّبت كتاب الحياة وقرأت صفحاته ، فلم اجد فيه متناً ! لم اجد فيه شيئاً سوى الهامش ! ..

فهنيئاً لمن كان مثلي – زاهداً في العظمة الفانية – يعيش على هامش الحياة ! ...

لقد فجعت الادب العربي ثلاث مرات !

●

لقد فجعتُ الادب العربي بثلاث قصائد ، جمعت أهم فنون الشعر الحديث والقـديم ، فأوعت : الاولى ملحمة ذات بيتين !. والثانية رومانتيكية ، والثالثة مأساة بالمعنى الصحيح !..

✡

كنت طالبـاً في الكلية العثمانية في بيروت وكان استاذي في اللغة العربية الشاعر الشهيد عمر حمد وكانت سني تـــتراوح بين الثامنة والتاسعة .

لا تزال صورة معلمي ماثلة امامي : سمرة بدوية حلوة وعينان تتقدان ذكاء وحماساً ووجه يطفح بشراً وايناساً ، وكان - رحمـه الله يستهوينا - بفصاحته وحسن القائه فكنا نحبه ونعتز امام رفاقنا من طلاب المعاهـد الاخرى بان استاذنا شاعر ، ونصفق له اعجاباً عندما كان يسمعنا - في حجرة الدرس - بعض قصائده الجديدة قبل ان ينشدها امام الجماهير !.. والواقع اني كنت اطرب كثيراً

لشعره وان كنت لا افهمـــه – لصغر سني – ورغم اني كنت في ذلك العهد افضل على جميع دواوين الشعراء بيتين اثنين – لا اعرف ناظمهما -. كنت ازين بهما غلافات كتبي المدرسية مستعيذاً بهما من سرقة الكتب المتفشية بين الطلبة . اما البيتان الشهيران فهما :

هـذا الكتـاب يخصني　　أفهمت أم لم تفهـمِ ؟
وكـل من يأخـذه　　يبلى بنـار جهنم !..

ولعلي اسيء الى ذكرى استاذي اذا قلت انه هو الذي أوحى اليّ فكرة النظم وحببه الى قلبي – وانا لا أحب ان اشرك معي احداً في الجريمة – ولكن الواقع ان القاءه المؤثر غرس فينا ميـلا الى سماع الشعر والترنم به . ألم َنبكِ يوم القى علينا قصيدة ابي البقاء صالح الرندي في رثاء الاندلس ، فوصل الى قوله :

ياويل امٍ وطفلٍ حيل بينهما!　　كما تفرّق ارواح وابدان !..

✡

قدم بيروت في ذلك العـام الطائران العثمانيان فتحي وصادق – على متن اول طائرة عثمانية – ونزلا في رأس بيروت فاشتركت مدرستنا في الاستقبـال الفخم وسرنا نحمل رايات الهلال ، وهتفنا وصفقنا للنسرين الباسلين وكان المشهد حماسياً رائعاً ففاضت قريحتي ببيتين من الشعر هما باكورة انتاجي الادبي :

قلت !.. لا فض « فويَ » :

ايهـــا العثمانيون هبوا فقد اتاكم رجـــلًا !.
قوموا واحسنوا ضيافته لئلا يحمر وجهه خجلا !.

هذا هو مطلع الملحمة ، ولعلها كانت مأساة لان الطائرين فتحي وصادق سقطا بعد ثلاثة أشهر ولاقيا حتفهما ،ولست ادري اذا كان لملحمتي هذه - على قصرها - علاقة بتلك الكارثة !..

✡

تلك هي محاولتي الاولى واما الثانية فكانت بعد خمس سنوات في جامعة بيروت الاميركية وكنت قد حفظت كثيراً من الشعر ودرست قواعد اللغة وملكت ناصية الوزن والقافيـــة !.. وكان الاعتقاد السائد في الجامعة اذ ذاك ان الشاعر لا يستطيع الاجادة الا اذا كانت الاسباب موفورة ، واهم هذه الاسباب - على مـــا اذكر - خلو الذهن من مشاغل الحياة والجلوس في روض تغنت اطياره وتدفقت انهاره . او على شاطىء البحر او في قمة الجبل !

لم اشأ أن اكلف نفسي عنـــاء السفر الى نهر الكلب فتأبطت ديوان المتنبي وقصدت الى « صخرة الانتحار » الشهـــيرة في رأس بيروت وجلست اتمتع بمنظر البحر وقت الاصيل !..

اعجبني المشهد وكان شعرياً حقاً فتناولت القلم والورق وحاولت وصف الطبيعة ، ولكن شيطان الشعر خانني فـــلم أظفر بمطلع القصيدة ، وكنت قد درست على اساتذتي في الجامعة ان المطلع أهم

شيء في القصيدة ، فما العمل ؟

قلت في نفسي اختار القافية اولا . فتحت ديوان ابي الطيب فوقعت منه على قافية دالية مكسورة ، وقررت ارجاء نظم المطلع الى ما بعد انتهاء القصيدة ، وهكذا كان !.. فكنت انتقي القافية من الديوان وانظم عليها البيت حتى اتيت على قصيدتي الرومانتيكية ثم نظمت المطلع والقيت القصيدة على جمهور من طلاب الجامعة فنالت استحساناً هائلا !

ولعلك تود أن أقدم بين يديك بعض ابيات خريدتي هذه ، ولكني أشفق عليك وعلى أدبك واكتفي منها بالمطلع ، وقديماً قالوا : « يفهم الكتاب من عنوانه ! »

يا بلاد الآباء والاجداد ‏ ‏ ‏ وربوع الابناء والاحفاد !.. الخ...

لا تنس باني استوحيت قصيدتي هذه من « صخرة الانتحار » فاذا ضاقت بوجهك السبل — لا سمح الله — وعزمت على مفارقة الدنيا ولقاء وجه ربك الكريم ، وكنت اديباً ، فلا تتردد ، اكتب اليّ ، ان بيتين من قصيدتي هذه ارسلها اليك يكفيان لاعادة الوديعة الى باريها !..

☆

اما المحاولة الثالثة والاخيرة فقد كانت بعد سنتين . توفي طالب من رفاقنا في الجامعة فقررنا اقامة حفلة تأبينية ، وكان

صيتي قـــد ذاع عقب قصيدتي الرومانتيكية فقرر الاخوان ان اكون شاعر الحفلة !.

لا حاجة للتطويل ، سطوت على قصيدة ابي الحسن الانبـاري الشهيرة :

حكم المنية في البرية جارِ ما هذه الدنيا بدار قرارِ

فسرقت معانيها وبعض الفاظها ونظمت مأساتي فجاءت رائعة مؤثرة ابكت الاصدقاء – لا لشيء سوى اني بكيت وانا القيها – وكانت ابلغ ما قيل في تلك الحفلة !..

واليك بعض ابياتها العامرة :

ان كان فقدُ (فلان) هدّ يمينكم فبفقده اني فقدتُ يساري !..
جاورت اصحابي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري !..

*

تلك كانت آخر محاولاتي الشعرية ، فقد قرأت بعدها «الخالدين» وحفظت شعرهم ، وعلمت – بحق وفي الوقت المناسب – اني لست موهوباً ، وان الشاعر مطبوع ، وعرفت من تلقـــاء نفسي ، اني – وان حرصتُ – لن أكون شاعراً بالقوة ، فاقلعت عن النظم غير آسف على شيء ، وحمدت الله الذي هداني سواء السبيل !

وعزائي الوحيد اني فجعتُ الادب العربي ثلاث مرات فقط !.

حطمت مغسلة وثلاثـة قلوب !

●

جرى هذا الحادث في باريس عام ١٩٢٢ وكنت إذ ذاك طالباً في «السوربون» اقيم في الحي اللاتيني – حي الطلبـة – في « نُزْل للعائلات » تديره مدام فوشيه وابنتاهـا الآنستان ليون وبرت ، وكنت – انا ورفيق سوري – الضيفين الوحيدين .

جلسنا للمرة الاولى الى العشاء مع الاسرة الكريمة ومـا كدنا نتناول اللون الاول من الطعام حتى التفتُ الى صينية الخبز اتناول منها رغيفاً ، فاذا بالخبز قـد نفد ، ولحظت ربة الدار ذلك فسألتنا إذا كنا نسمح لبنتها الصغرى بالنزول الى الفرن لتشتري لنا خبزاً فاعتذرنا باننا كدنا نشبع ثم جاءت الخادم باللون الثاني فاذا عـــلى القصعة قطعتان من اللحم – ونحن خمسة ! – فـاعتذرتُ واعتذر رفيقي واجمعنا باننا لا نحب اللحم ، وكان عشاؤنا – الاول والاخير – هزيلاً اعجف نذكره دائماً بالسوء .

وليت القضية انتهت عند هـذا الحد ، فقد جرى في تلك الليلة

ما نغّص علينا صفو اجتماعنا وورطنا في ورطة لم نستطع التخلص منها .

دار الحديث على المائدة حول الحرب العالميـــة الاولى فكانت الام وابنتاها يتحدثن بفخر عن انتصار الحلفاء واندحار المـانيا ، واجمع رأيهن على ان فرنسا قد خرجت ظافرة من الحرب ، فقلت للسيدة :

ــ انا لا أرى رأيك ياسيدتي ، واعتقد ان المانيا هي التي انتصرت لان المعارك الطاحنة لم تجر في بلادها فلم تتخرب مدنها ولم ينزل بها ما نزل بالمنطقة الشرقية الفرنسية من تدمير وتخريب !

مـا انهيتُ كلمتي هذه حتى ساد الجو صمت رهيب ، ثم تنهدت الام متحسرة واغرورقت عيناها بالدمع فأخذت تبكي بكـاء مراً واشتركت معها بنتاها بالنحيب فانقلبت المأدبة فجأة الى مأتم ! ...

استغربت هـــذا الانقلاب المفاجيء فقلت لربـة الدار بلهجة المعتذر :

ــ عفواً يا سيدتي ! ... لم اقصد بكلامي هـذا الاساءة اليكن وتنغيص صفو هذا العشاء ! واذا كان رأيي في قضية النصر يثير شجونكن الى هـــذا الحد ، فاني اعتذر واؤكد لك وللآنستين الف مرة ان المانيا لم تخرج ظافرة من الحرب وان فرنسا هي الـتي انتصرت وحدها ! وفوق ذلك فانا عـلى استعداد لتقديم الترضية التي تفرضها

عليّ اللياقات ! ...

– ولكنك يا سيدي ، لاتدرك خطورة الصدمة التي صدمتنا بها هذه الليلة ، لقد حطمت قلوبنا ! ... انت تجهل ان المرحوم زوجي قتل في الحرب دفاعاً عن شرف فرنسا ! وكان عزائي الوحيد عقب موته انه قتل ، ولكننا ربحنا المعركة ! وانت يا سيدى ، بحكمك هذا ، تزعم ان حياة زوجي الغالية قد ذهبت سدى في سبيل لاشيء !...
لقد جرحتنا في الصميم ايها السيد ! ...

✡

عبثاً حاولت اصلاح خطأي فلم يخفف اعتذاري من كآبة الاسرة ، وانفض العشاء على اسوأ حال . وذهب كل منا الى فراشه وبقي صديقي ساعة إلى جانبي يوبخنى لسوء تصرفي ويلومني لتنغيص هناء الاسرة !

✡

ولم يكن صباح الاسرة اسعد من مسائها فقد حدث حادث ثان ادّى إلى قطع العلاقات ومغادرتي النُزل . وتفصيل ذلك اني ذهبت مبكراً إلى حجرة الحمام اغسل وجهي فخلعت معطفي الليلي وعلقته على مشجب في الجدار وتناولت الصابون وهممت بالغسيل ، فاذا بالمعطف يتحرك كانه يريد ان يقع فاتكأتُ باحدى يدي على المغسلة امامي ، ومددت الثانية احاول التقاط المعطف قبل سقوطه ، ويظهر

ان المغسلة لم تكن متينة او انها ارادت أن تشارك معطفي في السقوط فانهارت على قدميّ وتحطمت الانانيب وتفجرت مياه السين الغزيرة تتدفق كالسيل وتتجمع في ارض الحمام ! ..

تركتُ الحمام مذعوراً وهرعتُ نحو صديقي استشيره في الامر فالفيتهُ نائماً فايقظته وانبأته بالحادث فغلب عليه الضحك واختبأ تحت اللحاف ولم يشأ مشاركتي في المصيبة ! ..

لم يبق امامي سوى مراجعة ربة الدار مدام فوشيه فذهبت إلى ردهة الاستقبال حيث لقيتها فتقدمت منها بوجل وقلت لها مضطرباً :

– صباح الخير يا سيدتي ، هل لك ان تتفضلي معي ؟

– إلى اين يا سيدي ؟

– إلى الحمام يا سيدتي !

– إلى الحمام ؟ وماذا تريد مني في الحمام ؟

– لا شيء يا سيدتي ، تفضلي ، ارجوك ، اسرعي وهناك تعلمين كل شيء ! .

تبعتني وهي تنظر إلي بحذر، ولما بلغنا الحمام ورأت هول المنظر صاحت باعلى صوتها وهي تلطم :

– ماذا صنعتَ يا سيـــدي ؟ كان الاجدر باهلك ان يرسلوك لتتعلم الملاكمة !. لقد خربت بيتي ! انا افهم انك قوي ، ولكني لا افهم مطلقاً ان « تتمرجل » على هذه المغسلة !..

مضى على هذا الحادث خمس عشرة سنة طوى النسيان في خلالها حكاية تحطيم المغسلة والعشاء الهزيل ومغامرات اخرى كثيرة في باريس ، ولكني لا ازال اتمثل وانا اكتب هذه السطور دموع الاسرة السخينة تذرفها على ربها ، لا لأنه مات ، ولكن لاني حكمتُ عليه – من غير قصد – بانه مات سدى في سبيل لا شيء !

أنا معجب بوطنية الفرنسيات والفرنسيين اعجاباً لا حد له !

وأود من صميم قلبي ان يحترم الغربيون الوطنية اينما ظهرت ، فلا يكون الدفاع عن الوطن بطولة في قطر ، وارهاباً ولصوصية في قطر آخر !..

اني اكتب هذه الكلمة يوم العيد ، واتقدم الى الامهات الثكالى والارامل واليتيمات وقد اجتمعن حول مائدة العيد ورأين المقاعد الشاغرة .. راجياً منهن ان يكفكفن دمعة الحزن وان تشرق على ثغورهن مع شمس هذا العيد ابتسامة الظفر والاطمئنان.

فشهداؤنا لم يموتوا في سبيل لا شيء !..

قم للمعلم وفه التبجيلا !..

●

كنت خارجاً من المدرسة ظهر يوم من ايام الصيف الحـــارة عندما استوقفني رجل ، أذكر اني اجتمعت اليه مرة او مرتين في حياتي ، وجل ما أعرفه عنه انه أميّ طيب القلب متوسط الحال من عامة الناس .

قال : أود ان استشيرك في قضية يا استاذ !

قلت : تفضل !

وانتحينا ناحية من الرصيف ، وشمس حزيران تلفحنا بأشعتها المحرقة ، فاندفع محدثي في استشارته غير مكترث للعرق الذي أخذ يتصبب من وجهي !

قال لي بعد مقدمات طويلة : لقد انهى ولدي دراسته الابتدائية في جامعة بيروت الاميركية فهل ترى ان يتمم الدراسة الثانوية؟

فاجبته : ولكني لا اعرف المحروس ولدكم ولذلك يصعب عليّ ابداء رأيي في الموضوع . وبالمناسبة هل هو ذكي ؟ وهل لديه ميـل

لمتابعة التحصيل ؟

ـ الحق ان ولدي ذكي مجتهد وراغب في العلم !.

ـ اذا كان الامر كذلك فلا بأس بأن يتابع تحصيله الثانوي .

اطرق محدثي قليلاً ثم قال بلهجة صادقة :

ـ سأعمل بنصيحتك يا استاذ ، وسأدخله القسم الثـانوي فاذا نجح فبـها ، وان لم ينفع لشيء عملناه معلماً !..

هنا ، تكلل وجهي بالعرق البارد ـ لقد كانت الصدمة عنيفة !ـ فتفرست في وجه مخاطبي أقرأ ملامحه فلم أجـد فيها أثراً للتهكم او المداعبة . كان محدثي يخاطبني بجد وصدق وسذاجة بريئة .

شكرته واستأذنت وتابعت سبيلي وكلماته ترن في اذني : اذا لم ينفع عملناه معلماً !.

*

التعليم مهنة الفاشلين في الحياة .

هذا هو الرأي السائد عند عامة الناس ، وقد أعرب عنه هـذا الرجل الساذج بمنتهى السذاجة ، وهو رأي قديم تجـــد له شواهد كثيرة في كتب الادب ! .

ألم يقرن المشرعون الاقدمون المعلم بالحلاق و« كشاش الحمام» فلا تقبل شهادة واحد من هؤلاء الثلاثة في المحكمة !..

رحم الله ابا عثمان الجاحظ وغفر له، ألم يحشر المعلمين مع الحمقى

والمغفلين فروى من صقاعاتهم الشيء الكثير وافرد لذلك كتاباً خاصاً ؟ .

وعندي ان الذين يتهمون معلمي الكتاتيب بصغر العقل مصيبون ، لان من الاصول الحديثة في التعليم ان ينزل المعلم في تفكيره الى مستوى الطالب حتى يتفاهما ! ما اكثر المعلمين الذين اذا نزلوا الى هذا المستوى طاب لهم فأقاموا عنده ، فتراهم صبياناً كباراً بين صبيان صغار !..

وقد شعر بهذا الامر الفيلسوف الفرنسي ديدرو عندما عهدت اليه اسرة من نبلاء فرنسا بتربية احد اولادها فأكرمته واغدقت عليه النعم ؛ ولكن الفيلسوف رفع استقالته بعد مضي اسبوع واحد واعتذر عن القيام بالمهمة فقالت له ام الطفل :

ــ اني مسرورة منك ومن نتائجك يا مسيو ديدرو وكذلك زوجي ، والولد يحبك كثيراً ، ارجوك ان تستمر في عملك !.

اجابها ديدرو مبتسما :

ــ اني اعلم ذلك حق العلم يا سيدتي ، ولكني كنت في صراع دائم مع هذا الطفل ، احاول ان اجعل منه رجلاً وهو يحاول ان يجعل مني طفلاً ، ولا اكتمك يا سيدتي اني شعرت في نهاية الاسبوع بأنه كاد يتغلب عليّ ! لذلك فضلت الفرار من المعركة !..

*

ولكن امير الشعراء شوقي يرى غـــير ذلك فهو يرى التعليم – بعد النبوة – أسمى مراتب البشر :

قمْ للمعلم وفـــه التبجيـــلا كاد المعـــلم ان يكون رسولا
ارأيت اشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشيء انفسا وعقـــولا
سبحانك اللهم خـــير معلم علمت بالقلم القرون الأولى !

والمعلمون – جميعهم – يرون رأي شوقي فيهم ، ويعتقدونه ، ولذلك فانك تجد هذه القصيدة منتشرة انتشاراً هائلًا بين طلاب المدارس يحفظونها ويرددونها في مناسبات كثيرة !..

ما اكثر الحفلات المدرسية التي حضرتها وقد تصدرها المعلمون فيقف احد الطلاب وينشد هذه القصيدة انشاداً حماسياً رائعاً ، والمعلمون جلوس يهزون رؤوسهم اشارة الموافقـــة على اقوال الشاعر ، وامارات الاطمئنان بادية على وجوه بعضهم ، وامارات النقمة بادية على وجوه البعض الآخر الذى يرى ان شوقي لم يقل الا بعض الحقيقة !...

المساكين لقد صدّقوا !...

وصدَق الجاحظ !...

*

والواقع اني – كمعلم – أرى ما يراه شوقي ، واعتقد ان التعليم مهنة مقدسة ولكنها عاقة !..

والمعلم أشبه شيء بجسر يصل بين ضفتي نهر ، وعليه تمر أفواج الناس من ظلمات الجهل الى انوار العلم ! كل من يمر على هذا الجسر يصل إلى الضفة الثانية ! الجميع يصلون والجسر باق في مكانه !...

وأخيراً يتداعى هذا الجسر وتتزعزع اركانه فينهار في الماء ولا يشعر به احد !

وينتقل الناس الى جسر آخر !..

لنا العزة القعساء!..

●

العرب اليوم أقل الامم رجوعاً إلى المعاجم لتفهم مفردات اللغة، ومكتبتهم - رغم هذا الاهمال - من أغنى المكاتب بالمعاجم وكتب اللغة.

ولقد درستُ الانكليزية والفرنسية فكان سلاحي في معالجة رموزهما قاموس «وبستر» و«لاروس الاحمر»، وكان اساتذتي - من الفرنسيين والانكليز - رغم سعة اطلاعهم، يرجعون دون خجلٍ وباستمرار إلى القواميس ويطلعون على اسرار مفردات لغتهم ومعانيها الدقيقة!.

أما نحن العرب فنعتقد ان دراسة لغتنا لا تحتاج الى عناء ومراجعة وتدقيق فنكتفي عادة بما نلتقطه وما يعلق بذهننا في اثناء المطالعة من معاني المفردات، وقل ان يرجع احدنا الى القاموس!

واني اراهنك على انك واجد في معظم بيوت ابناء بيروت قواميس «لاروس» الفرنسية طبعة ١٩٣٨ ولكنك لن تجد

« صحاح الجوهري » أو « المنجد » – على سخافته – أو « أقرب الموارد » أو « القاموس » الا في بيوت بعض المتأدبين وهواة الكتب المجلدة الذين يقنعون من اقتناء الكتب بالنظر اليها ومداعبتها مداعبة عذرية بريئة – من بعيد ! ..

ولو انك عثرت خطأ على قاموس عربي لما اهتديت بسهولة إلى من يحسن استعماله أو يعرف كيف يبحث عن معنى كلمة فيه !

*

لست أقصد من كلمتي هذه الدعاية للقواميس وترويج سوقها بين الناس فمكتبتي – وان كنت على استعداد لبيعها في اول فرصة ولأول راغب – فقيرة هزيلة سطا عليها اصدقائي المعجبون بقول شوقي : « أنا من بدّل بالكتب الصحابا » فلم يبقوا لي منها ما يُغريني على بيعها ولا ما يُغري الناس على شرائها ، وقد اقفرت – كحومانة الدراج ! – إلا من بعض تآليفي الكاسدة وبعض جوائز مدرسية مذهبة ، نلتها – لا أدري لأية سخافة – في عهد حداثتي ! ..

ولكني أحب أن أوّجه كلمة حق الى ابناء هذا الجيل – جيل السرعة والاستهتار – الذين لايرون كبير فائدة في التعمق والاستقصاء ويقنعون بالنظرة السطحية السريعة الى الاشياء .

*

مفردات اللغة كائنات حية تولد وتحيا وتموت ، تموت إذا أهملت وتنمو وتزهو وتسير جنباً إلى جنب مـــع التطور الطبيعي إذا أحيطت بالعناية والرعاية !

وليست حياتها في بقائها مدفونة ضمن طيات الكتب والمعاجم ، ولكنها تحيا بالتداول وتتجوهر بالاستعمال !

وإذا كان في أدبنا اليوم جمودٌ وبعدٌ عن الحيـاة ، فاني اعزو بعض هذا الجمود إلى ضعفنا في فهم مفردات اللغة وما يرافق هـذا الضعف من عجز في التصرف بالالفـــاظ وقصور في التعبير عن خواطرنا ومشاهداتنا ، وما ينشأ عن هـذا القصور من التجاء الى التقليد فترانا نستعمل الكلمة – بشيء كثير من الزهو والفخر – كما وردت في تعبير أحد البلغاء الاقدمين ، دون ان نفهم معناهـا فهماً حقيقياً فتأتي العبارة تامة التزويق والتنميق ، خاليـــة من الروح والحياة والطابع الشخصي ! ..

*

نحن نفهم مفردات لغتنا على وجه التقريب وبالقرينة ! ..

خذ هذه الامثلة عن جهلنا الفاضح لمعاني المفردات :

هل سمعت يوماً بعزّة غير قعساء ؟ العزة لا تكون الا قعساء لا لشيء سوى ان الفرزدق الذي كانت له العزة القعساء – على حد قوله ولو غضب جرير – استعملها فاستعملناها نحن. استعملناها

ونحن لا نفهم معناها ولكننا نعلم ان العزة القعساء خير من العزة التي لا تكون قعساء ! ..

أليس يفهم من هذا انه ليس من الضروري في الادب العربي ان نكتب ما نفهمه وما نشعر به بل يكفينا ان نردد ما نحفظه وهل بعد هذا جمود ؟

ولو زعم بعضهم انه يفهم معنى « القعساء » فليجبني هذا « البعض » على هذا السؤال :

– لماذا لم ترد لفظة قعساء في ادبنا إلا مع العزة ، ولماذا لا نستعمل مذكرها الاقعس ؟ ..

لقد جمدت هذه اللفظة – رغم جمالها – لاننا لا نفهم معناها ولذلك فنحن لا نستطيع التصرف بها .

والخطيب المصقع ! .. والكاتب النحرير ! ... والاديب اللوذعي ؟ .. والله اني لا اعرف معنى هذه الكلمات ولكني استعملها كسواي بقوة الاستمرار والمسايرة ! ..

ونحن نجهل اسماء النبات والأزهار والطيور والاسماك والآلات واعضاء الجسم مع ان لغتنا من اغنى لغات العالم في هذه المسميات ، ولكننا قنعنا من ذلك كله بما يجري على ألسنة العامة وما نلتقطه عفواً من مطالعة الصحف والمجلات ! ..

*

انا لا أعرف من اسماء الاسماك سوى « السلطان ابرهيم » و« البوري » ولكنني أعرف شيئاً كثيراً منها في اللغات الاجنبية ولا أعرف من اسماء الازهار البرية وانواع الطير الا ما ندر ! ..

ولكن الشاعر العربي العصري اليوم يتغزل بالخزامى والرند والعرار والبان والورس ! .. وعليّ ان اطرب لهذه الازهار مسايرة للناس وان كنت لا استطيع أن أتخيل « خزامة » واحدة! كم كنت أتمنى ان أعرف العَرار حتى أتمتع من شميم عرار نجد قبل العشية ! ..

ومن يدري ؟ لعلي رأيت العرار مراراً في البرية وشممته وانا أجهل انه عرار كما كان المعلم « جوردن » في رواية موليير « Le Bourgeois Gentilhomme » يقول النثر من سنوات في حديثه مع خادمه وهو يجهل انه يقول نثراً ! ..

ثم نحن نستعمل الروضة والحديقة والجنينة والبستان والمرج على انها مرادفات لمعنى واحد مع ان اللغة جعلت لكل لفظ منها معنى خاصاً به مختلفاً كل الاختلاف عن سواه ولو رجعنا الى كتاب فقه اللغة للثعالبي لوجدنا من ذلك الشيء الكثير .

واذا قادتني الصدف الى حانوت نجار أو جزار او حداد ورأيت أن اصفه وصفاً حسياً دقيقاً خانتني المفردات الفصحى للآلات وخشيت أستعمال الكلمات العامية فتأتي الصورة ناقصة — لخلوها

من الكلمات الفنية - بعيدة عن الحقيقة خالية من الروعة والحياة!

✡

لغتنا غنية بمفرداتها ، دقيقة في التمييز بين هذه المفردات ! .

اشترِ قاموساً وارجع اليه كلما سنحت لك الفرص ، وتَعرّف الى خبايا لغتك وكنوزها واسرارها ! .

لا تقنع بفهم المفردات عل وجه التقريب !

إلا اذا كنت حريصاً على ان تظل اديباً على وجه التقريب !

✡

وأما العزة القعساء فلا تجهد نفسك بالبحث عنها في كتب اللغة فقد انتزعتها يد الله من المعاجم وتوّجت بهـا جباه الاسود حول المسجد الاقصى ! ..

عيون المها بين الرصافة والجسر ..

•

كنت في احد فنادق دمشق أعد العدة للسفر الى بغداد عند ما زارني نفر من الاصدقاء اتوا لوداعي قبيل الرحيل . قال لي احدهم مداعباً : اذكرنا في نزهك الجميلة بين الرصافة والجسر ، وأقرِ عنا السلام عيون المها التي جلبت لابن الجهم الهوى من حيث يدري ولا يدري ... وأخذ يتمشى منشداً :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبنَ الهوى من حيث ادري ولا ادري

وقال آخر : اذا زرت ضريح ابي نواس في بغداد فاقرأ عني الفاتحة لروحه ..

وكان بينهم شيخ شغل منصب القضاء زمناً طويلا في احدى مدن العراق فأحب ان يفيدني من تجاربه فاعتدل في مجلسه ثم قال:

— انت مسافر الى بغداد ، فاذا قُدّر لك يوماً ان تذهب الى الحمام فخذ معك قبقاباً وعصا وفانوساً . وسكت هنيهة ثم اردف

قائلًا : ومصحفاً شريفاً !.

– ولمَ يا مولانا القاضي ؟!

– ليس في حمامات بغداد قباقيب فخذ معك قبقـــاباً ، واما العصا فانك تتوكأ عليها فتأمن الزلق على البلاط ، واما الفانوس فانك تتبين بنوره طريقك في الحمام لشدة الظلام !

– والمصحف الشريف يا مولانا !. المصحف ؟

– لكي تحلف عليه يميناً مقدسة انك لا تزور الحمام مرة ثانية.

هذه هي الوصايا الثلاث التي زودني بها اصدقائي حملتها وسافرت الى بغداد .

*

وبغداد أنيسة أليفة ، لا يكاد يستقر فيها الزائر حتى تُوفد اليه سرباً من « الاخوات » يلازمنه ويداعبنه ، وقـــد أرسلت اليّ – حرسها الله – فور وصولي اثنتي عشرة اختاً من كرام العرائس ، انتشرنَ فيما بطنَ وظهر من جسدي فألزمنني الفراش وبقيت سنة اعالجهنّ ويعالجنني واخيراً تغلبتُ عليهن ولكنهن تركن في بدني اثاراً لا تمحوها الايام !..

« والاخوات » في لغة بغداد بثور (حبوب) تظهر في جسم العراقيين وزوار العراق فتظل سنة كاملة ، ولم يكتشف الاطباء حتى الآن مصدرها الحقيقي ولا طريقة لمعالجتها . وما اكثر الوجوه

العراقية الجميلة التي شوهتها الاخوات ، وما اكثر الوجوه العراقية الجميلة التي زانتها الاخوات فبدت الاخت على الخد كالشامة فاكسبته جمالا على جماله !

*

ذهبتُ في مدينة السلام مراراً الى الرصافة ومشيت على الجسر ومشيت بين الرصافة والجسر ، ونصبت شراكي وطرحت شباكي واخذت اتفحص عيون المارة وانتظرت طويلاً فلم اظفر بعيون المها واخيراً تسرب اليأس الى قلبي فعشت خالياً -- على مذهب ابن الفارض رحمه الله — :

وعش خالياً فالحب راحته عنا   وأوله سقم وآخره قتل

*

أما ابو نواس فلم أهتد الى ضريحه ، وعلام اقرأ لروحه الفاتحة وهو الواثق بعفو الله المطمئن الى رحمته . اليس القائل :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بان عفوك اعظمُ
ان كان لا يرجوك الا محسنٌ
فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟
أدعوك رب كما امرت تضرعاً
فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم ؟

مالي اليك وسيـــلة الا الرجـــا
وجميـــل عفوك ، ثم اني مسلم !

ومع ذلك قرأت لروحه الفاتحة مراراً ..

*

وأما الحمام فقد قصدته مرة واحدة ، حلفت بعدها على المصحف الشريف يميناً مقدسة ألا أزوره ما حييت ، وقد صدق مولانا القاضي هذه المرة !.

*

وبعد فلئن فاتتني عيون المها بين الرصافة والجسر ، ولم اتمتع ببغداد كما عرفتها في حكايات « الف ليلة وليلة » ، فقد رأيت فيهـا ما يرفع الرأس ويثلج الصدر !.

رأيت شباباً نضراً كالزهر تنكّب السلاح للدفاع عن وطنه ، ووقف حياته على خدمة بلاده ، رأيت هذا الشباب في استعراض المدرسة الحربيـة - مفخرة العراق - فقرأت في سمرة كل منهم روح العزة القوميـــة تتألق في قسمات وجوههم وضاحة بسامة ، ورأيت نسور الرافدين تحلّق في الجو فتطير معهـا الافئدة جزعاً وتشخص اليها الابصار نشوى وتزغرد النساء ابتهـاجاً ويتمنى كل مخلص لو يفديها بالمهج والارواح .

ورأيت في العراق جرأة في المحافظـة على الكرامة ، وسمعت

شعراءهم ينشدون والعراق باسره يردد معهم :

المستشار هو الذي شرب الطلا [1] فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟.

وينشدون :

ألا بلغوا عني الوزير تحية له ضمنها لو كان يعقل توبيخ

أراك بحمام الوزارة نورة [2] واما جناب المستشار فزرنيخ

ورأيت أمة تفتخر وتعتز بعروبتها !

ورأيت شعباً متعطشاً الى طلب العلم .

ونعمت بطلعة ملك عربي ، على فرقه تاج من الكرامة والمجد .

وأحببت في العراق شعباً باسلاً ضحى بزهرة شبابه في معركة « الرميثة » فظفر بالحياة والكرامة والاستقلال .

*

واخيراً لئن فاتتني عيون المها بين الرصافة والجسر ، فقد رجعت من العراق قوي الايمان بعروبته ونهضته واستقلاله ، احمل في جسمي اثني عشر وساماً ..

---

(١) الخمر

(٢) حجر الكلس يضاف الى الزرنيخ ويستعمل لازالة الشعر

مادبة اللئام ...

●

لا يختلف اثنان – أو أكثر ! – في أن ابرز مـا يتحلى به العربي قديماً وحديثاً هو الكرم !

وقد قرأت حكايات كثيرة عن مظاهر الجود العربي ، فهـذا حاتم الطـائي يذبح فرسه الكريم ليُقري رسول قيصر الذي جاءه يطلب الفرس ، وهـذه قصائد العرب تمجد السخاء ، ولعل اجمل صورة رأيتها للكرم في الجـاهلية بيت قاله حسان بن ثابت في ابناء جفنة :

يغشون حتى مـا تهرّ كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

فالكلاب تعودت غشيان الضيوف منازل آل جفنة فلم تعد تنبحهم .

*

ولقد كنت أعتقد أن في هذه الانباء والقصائد غلواً واسرافاً في المبالغة ، حتى زرتُ العراق واتيح لي أن أقوم فيه بجولتين :

احداهما بين عرب الفرات والثانية حول دجلة .

رأيت في الرحلة الاولى ما ادهشني ، فحيثما حللت وفي أية قرية نزلت كنت أجد نفسي -- رغم زيارتي المفاجئـــة — حول مائدة حوت مختلف أصناف الطعام والحلوى !.. وقد حملني فضولي على استجلاء هذا السر ، فعلمت أن العادة المتبعة عند عرب الفرات إذا استضاف أحدهم زائرٌ ، أن يرسل كل بيت من بيوت القرية أفخر ما عنده من الطعام فيتألف من ذلك كله مأدبة انيقة ، فلا يشعر الضيف المفاجيء بأدنى تقصير في إكرامه !

أما حول دجلة — وعلى الحدود الشرقية خاصة — فلم نكن نلقى مثل هذا الاكرام ، وسر ذلك ان بعض الذين اتصلنا بهم لم يكونوا عرباً اقحاحاً !.

☆

قد تزور صديقاً لك — على حين غرة — فيدعوك الى مشاركته طعامــــه الذي يتألف من « حواضر البيت » ، وليس لك — مهما تكن هذه الحواضر هزيلة — ان تعتب أو تتذمر أو تنعت صديقك بالبخل ، فالجود لا يكون الا من الموجود !

ولكن لك ان تعتب أشد العتب اذا كنت عربياً وأدب لك أحدهم مأدبة هزيلة شحيحة ، ولك عندئذ أن تغضب لكرامتك وأن تنعت هذا الصديق بالبخل ، والبخل عند العرب ألأم الطباع !.

وسيروي التاريخ فيما روى ، أن جماعة من عرب مصر والعراق والشام والحجاز واليمن ، دُعوا الى مأدبة في مكان بعيد فلبوا الدعوة — والكريم يجيب الدعوة — فشدوا الرحال وقطعوا البحار والفيافي والقفار وتكبدوا المشاق ، فاذا بهم يجتمعون حول مائدة هزيلة حوت أحقر أصناف الطعام ، فغضبوا لكرامتهم وتعففوا ، ولم يمدد أحد منهم يده الى الزاد ، وباتوا على الطوى ، وعادوا من الوليمة ، والخيبة المريرة ملء نفوسهم !..

لقد خُدع العربي — ومن حقه ان يُخدع — لانه وهو المفطور على الكرم ، لا يستطيع ان يتخيل اللؤم عند فريق من البشر بهذا المظهر البشع !..

ولعل التاريخ — وهو الحريص على الحقيقة — لا ينسى ان هذه المائدة — أي مائدة الطعام — كانت مستديرة !.. [1]

---

(١) اشارة الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن بشأن فلسطين

التين والزيتون

●

كنا في حداثتنا نُعنى باستظهار القرآن الكريم ، نقرأ ما لا نفهم، وكان من حظنا ان ندرس السور الصغيرة من جزء « عم »، لانها في نظر مشايخنـــا اسهل من سواها وان تكن في الواقع لا تختلف عن السور الكبيرة من حيث الصعوبة .

وكانت احبّ هـــذه السور الصغيرة الى قلبي سورة « التين والزيتون » ، فقد كنت ارتل آياتها بلذة عجيبة ، ففيها التين وفيها الزيتون ، وكلاهما حبيب الى قلوب الصغار .

وكانت سورة « الكافرين » من اصعب السور للحفظ، فكنت اخطىء دائماً بين قوله تعالى لا اعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما اعبد،ولا انا عابد ما عبدتم فأقول: لا انا عابدما تعبدون،وانا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما تعبدون ،فتصيبني عصا الشيخ الثقيلة على رأسي وعلى كتفي وهو يردد : اعوذبالله ، لقد كفر الغلام ! ..

وبقيت طيلة حداثتي محتفظاً بهـــذه الذكرى الاليمة فيزداد

التباسي بين آياتها ، فكنت ارتجف كلما طلب مني الشيخ تلاوتها .

وانقضى عهد الدراسة في الكتّاب وفي المدرسة الثانوية وفي الجامعة ولم يتح لنا ان ندرس تفسير القرآن على حقيقته، فخرجت وانا لا اعرف من تفسير سورة التين والزيتون سوى ما سمعته من بعض مشايخي من انهما فاكهتان طيبتان مباركتان وان الله سبحانه وتعالى يقسم بالتين والزيتون .

*

واتيح لي بعد ذلك العهد ان اختلس بعض اوقات فراغي لمطالعة بعض كتب التفسير فعرفت اشياء كثيرة واكتسبت فوائد جمة ، كنت اتمنى لو سمعتها من اساتذة القرآن الكريم ، وانا بعد على مقاعد الدراسة ، واسفت جد الاسف لان النشء محروم من الاطلاع على هذه الكنوز الدفينة ...

*

غفر الله لذلك الشيخ القاسي !..

لقد كنت فيما مضى ارتجف من تلاوة سورة الكافرين ، فاصبحت اليوم اتلوها معتزاً فخوراً في مناسبات كثيرة ، فهي رمز لتساهل الدين الاسلامي الذي يرميه بعضهم بالتعصب الذميم .

قل يا أيها الكافرون ، لا اعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما اعبد ، ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما اعبد، لكم

دينكم ولي دين .

لكم دينكم ولي دين !..

*

واما سورة التين فقد ظلّتْ لغزاً استعصى عليّ حله . وكنت استبعد ان يقسم رب العزة بالتين والزيتون ، واتخيل نفسي وقد شكك بعضهم في حديث ارويه فأقسم لهم يميناً مغلظة بالتين والزيتون فلا اجد في قسمي هذا من القوة ما يحملهم على تصديق حديثي .

ثم ارجع الى السورة الكريمة فأجد انتقالا فجائياً من التين والزيتون الى طور سينين (جبل سيناء) وهذا البلد الامين (مكة) فلا افهم معنى هذا الانتقال السريع الغريب !.. يقسم الله بالتين والزيتون وجبل سيناء ومكة !..

*

وذات يوم كنت اطالع في معجم البلدان لياقوت الحموي — رحمه الله — فصلاً عن دمشق الشام فاذا به يقول : ومن جبالها جبل التين وهو مقدس ومنه قوله تعالى : والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين ، اي قسماً بجبل التين في الشام وجبل الزيتون في فلسطين وجبل سيناء ومكة .

ولا يذكر ياقوت تفصيلاً عن قدسية جبل التين ، ولكن جبل

الزيتون مقدّس عند النصارى وعليـــه وقف السيد المسيح يصلي ويقول لأحد الحواريين : ستنكرني ثلاثاً قبل صياح الديك !...

وناجى موسى ربه في طور سينا ، وبعث الله محمداً في مكة !..

ففي القسم اذن اشارة صريحة الى الديانات الثلاث الكبرى !..

✡

غير اني احب ان أرى في هذا القسم ابعد مما ذكرت :

ان الله يشير في هذا القسم الى سورية وفلسطين وسيناء والصحراء والحجاز وما يربط هذه الاقطار من اواصر لا انفصام لها !

✡

كنت في حداثتي احب سورة «التين والزيتون» على انهما رمز لفاكهة لذيذة !

وها انا اليوم اقدّس هـــذه السورة الكريمة على انها رمز للوحدة العربية !...

هذه الآلات البشرية !

●

اجمع الناس على ان الغضب آفة من الآفات ، وتفننوا في اساليب مكافحته . وقد قال الله في وصاياه العشر « لا تغضب ! » وقال بعضهم « عد العشرة ! » وقال آخرون « استعـــذ بالله من الشيطان الرجيم في ساعة الغضب ... ويا لها من ساعة ! »

وقال علمـاء النفس المحدثون ، وعلى رأسهم الاستاذان جيمس ولانج ، ان الغضب عاطفة تزيد وتنقص بنسبة الحركات العضويه الفسيولوجية التي ترافقها ؛ فاذا كنت في حالة انفعال نفسي شديد وتركت لاعضائك الحرية بان تأخذ مداهـــا فتشنجت أعصابك ، وكشرت عن أنيابك ، ورفعت قبضتيك مهدداً وهبطت بهما بقوة على المنضدة ، ازداد هذا الانفعال ، ولكنك اذا كبتّ هـــذه الحركات والتزمت السكون والهدوء ، خفّت ثورتك العاطفيـة ! وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك في تفسير هـذه النظرية فقال : انك تخاف من الوحش لانك تفر منه ، فالهرب يسبب الخوف !..

وهكذا ترى ان النصيحـــة البسيكولوجية لتخفيف الهرب تنحصر في التزام الهدوء والسكون... ولكن أنى للمرء أن يقوى على ضبط حركاته وتقييدها عندما يصطدم بحماقة من حماقات أبناء جنسه او ... بنات جنسه !

حاولت - في احدى حالات الغضب الشديد - ان أعد العشرة، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم مراراً ، وجمـدت في مكاني ولم اتحرك ... ولكن الغضب كان يتأجج في صدري كأنه يريد ان ينفجر فتضيق به جوانحي ولا تهمد سورته الا بعد تحطيم الانية او الاشخـــاص ... او تحطيم نفسي لشدة الكبت والغيظ !.. وانا الخسران في كلتا الحالتين .

واخيراً ، وبعد لأي توصلت الى طريقـــة خاصة في مكافحة الغضب ، أبسطها للقراء وان يكن فيها بعض القسوة في الحكم على الناس ، او بعض الاساءة اليهم !

اذكر ان أحد اساتذتي في الجامعـــة قال لي يوماً « لا تغضب يا بني ، بل أنظر الى الامور نظرة واقعية : انظر الى البشر كما هم ، لا كما ينبغي ان يكونوا ، والى الاشياء كما هي .. كن واقعياً ! ».

هذه الكلمة هي التي أوحت الي هذه الطريقة الخاصة في الحيلولة دون الغضب !

نحن نغضب من الناس لاننا ننظر اليهم نظرة رفيعـة لا تتفق

والحقيقة في شيء ، فالناس - على الرغم من مظاهر الحضارة البراقة التي تحيط بهم - حيوانات ناطقة تفكر ... ولم نسمع ان انساناً غضب يوماً من حيوان ، لاننا نعلم ان الحيوان لا يملك من العقل اكثر مما يملك ، ولذلك فنحن لا نلومه ولا نغضب منه ، بل نحن نلوم من يلومه ونغضب على من يغضب منه !..

والبشر كذلك حيوانات لا تملك من العقل اكثر مما تملك ، ولا حيلة لها فيما ترتكبه من حماقات، لان هذه الآلة البشرية - التي ندعوها انساناً - مقيدة بقيود حيوانية لا تستطيع التملص منها !

فيا أخي ، كلما غضبت من سيد او سيدة ، تخيله كالحيوان عارياً من ثيابه ، واذكر انه كالحيوان يحمل في بطنه كمية من الطعام ومن فضلاته ، وانه على الرغم من ذلك يسير مزهواً مختالا فخوراً - جرّده من مظاهر الحضارة التي تنسيك أصله الحيواني ، وانظر اليه كآلة حيوانية لا حيلة لها في زيادة هذه المسحة الالهية التى ندعوها ذكاء - تخيل ذلك كله ، وانا الضمين لك بان سورة غضبك تخف كثيراً ان لم تزل تماماً !

وبعد فانني أتصور القارىء الكريم وقد ثار غضباً واستشاط غيظاً لهذا التشبيه الجريء الذي يهبط بالبشر من مرتبة الالهة الى مرتبة الحيوانات ، وكأنه يود ان يمزقني ارباً ارباً !

لا ، على رسلك يا قارئي! هوّن عليك فالخطب أيسر من ذلك.

طبّق هذه النظرية علي ، وجردني من مظاهر الحضارة – ربي كما خلقتني – واذكر انها صادرة عن آلة حيوانيـــة لا حيلة لها فيما تقول !

الم تخمد ثورة غضبك ؟.. ولو قليلا !..

أدب أقمناه مقـام الوالد !..

●

سيتهمني بعضهم بالتعصب وسيأولون كلامي تآويل شتى !..

هذه فكرة جريئة ، ارسلها – على علاتها - فان اصبت فلست أول من أصـاب ، وان اخطأت فلست آخر من يخطىء ، وحسبي من ذلك كله حسن نيتي ، وهل الاعمـال والاقوال الا بالنيات ؟...

اني اعتقد اعتقاداً راسخاً ان العربي لا يستطيع فهم الادب العربي فهماً صحيحاً ما لم يدرس القرآن الكريم دراسة وافية ، واني ارى من واجب الشباب العرب المسيحيين ان يقرأوا كتاب المسلمين ، ليفهموا تراكيبه ، ويطلعوا على اسرار بلاغته ويحفظوا بعضه غيباً.

عليهم اذا ارادوا ان يستقيم نطقهم على الوجه الاكمل ، ان يدرسوا احكام التجويد ، وعليهم اذا ارادوا ان يملكوا ناصية اللغة وتراكيبها الفصيحة ان يتعرفوا الى محكم آياته ، واذا ما ارادوا ان يدركوا أثر القرآن في الادب العربي – وقـد كان له أبلغ الاثر – فعليهم بدراسة الثقافة الاسلامية عموماً وليس يضيرهم ان يجـدوا

فيها ما يخالف معتقداتهم الدينية فهم يدرسونها من الناحية الادبية، والأدب لا يعرف عصبية جنسية أو دينية كما قال ابو تمام – رحمه الله – منذ اكثر من الف عام :

ان يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد !
او يختلف نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد !...

قد يتهمني بالغلو والاسراف بعض الذين لا يرون هذه الحاجة الملحة الى دراسة القرآن ، فليستمع هؤلاء الى الحادث الآتي :

ضمني وفريقاً من الاخوان الادباء المسيحيين مجلس أدب ، دار فيه البحث حول هذا الموضوع ، فانقسموا فريقين بين مؤيد ومفند، فطلبت اليهم ان يشرحوا لي معنى قول ابي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي الذي استشهد في الحرب :

تردى ثيـاب الموت حمراً فما دجى
لها الليل الا وهي من سندس خضرُ !

قالوا : ان ثياب المرثي حمراء من الدماء فلما اقبل الليل اصبحت خضراء .

قلت لهم : هذا صحيح ولكن ما القصد من اللون الاخضر ولماذا لم يختر الشاعر اللون الاصفر ؟

لم اجد بينهم من استطاع فهم المعنى الذي رمى الشاعر – اقسم لك برحمة ابي تمام وهي غالية عندي ! – ولما فهموا ان الثياب

السندسية الخضر لباس اهل الجنة وان المرثي قد صعد الى الجنة رأساً ، وان الشاعر اشار الى ان الفقيد مات شهيداً وان الله راض عنه ، اعجبوا بالمعنى واعترفوا بانهم قرأوا هذا البيت مراراً ولم يوح اليهم هذه الفكرة الجميلة !...

ولو انهم قرأوا القرآن لذكروا هذا المعنى الذي يرد كثيراً في وصف اهل الجنة : « عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٌ واستبرق وحلّوا اساور من فضة » الى آخر الآية الكريمة .

ثم ذكرت لهم حكاية ابي تمام المعروفة حين انشد احمد بن المعتصم قصيدته السينية :

«ما في وقوفك ساعة من باس»

ووصل الى قوله :

أقدام عمرو في سماحة حاتم　　في حلم أحنف في ذكاء اياس

وكان في المجلس الفيلسوف الكندي فقال مخاطباً ابا تمام : « الامير فوق من وصفت»، وما زدت على ان شبهت الامير بأجلاف العرب » فاطرق ابو تمام ثم قال على البديهة :

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه　　مثلا شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره　　مثلا من المِشكاة والنّبراس !

وسألت اخواني الادباء عن حكاية المشكاة والنبراس فظلوا حائرين ولم يدركوا القوة في قول ابي تمام لانهم لم يقرأوا قول الله

تعالى : مثل نوره كمشكاة فيها مصباح الخ ...

ثم سألتهم عن المقصود من «الصرح» في قول البحتري من وصفه لبركة المتوكل :

فلو تمر بها بلقيس عن عرض ، قالت: هي الصرح تمثيلاً وتشبيها !

لم يفهموا قصد البحتري لانهم لم يقرأوا قوله تعالى : « قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة و كشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير !... »

قلت ان فكرتي هذه جريئة ، ولكنها ليست جديدة ، فقد اثيرت قديماً في مصر ودعا اليها الوزير المسيحي القبطي مكرم عبيد باشا ففرض على جميع الطلاب المصريين - مسيحيين ومسلمين - دراسة القرآن وحفظ منتخبات منه .

ويسرني ان اشير في هذه المناسبة الى ان فريقاً من فحول الادباء المسيحيين في اواخر القرن الماضي كان يحفظ القرآن الكريم غيباً ، وان فريقاً من الاحياء المعاصرين يضع القرآن الى جانب سريره ، يقرأ منه ما تيسر كلما آوى الى فراشه !...

هذه فكرتي ادين بها وأدعو اليها .

سيتهمني بعضهم بالتعصب، ويذهبون في تأويله مذاهب شتى !...

لا تعجب فقد اتهموني قديماً بالالحاد !

لقد كذبوا مرتين !...

الصرصر الذي يخيف المرأة ! ..

●

(يعود الزوج من عمله في الساعة التاسعة متعباً باديء الاجهاد، ويدخل المنزل بخطى متثاقلة فتستقبله الزوجة على الباب)

هو – مساء الخير يا حبيبتي !

هي – (تنظر الى الساعة في يدها) أهلًا وسهلًا.. لقد تأخرت يا عزيزي !

(يتبادلان آلياً قبلة المساء)

هو – هل نام الأولاد ؟

هي – نعم .. ناموا كلهم إلا واحداً ما يزال حتى هذه الساعة يجد ويعمل .

هو – وكيف تسمحين له بالسهر حتى هذه الساعة ، أنظري إلى أثر التعب والسهر في وجهي ، هيا نضعه في فراشه ... حرام أن يسهر هذا المخلوق الصغير حتى الساعة التاسعة .

(يدخلان حجرة الأولاد فاذا الأربعة نيام يغطون في سبات

بريء) .

هو — (ينظر اليها متسائلا مشدوهاً) ..

هي — (مبتسمة بخبث) أنسيت ما كنت تردده على مسمعي دائماً بان في هذا البيت خمسة أطفال ؟

هو — (ضاحكاً) تريدين أنني أنا الطفل الخامس .. هـــذا صحيح يا عزيزتي .. ولكن طفلك الخامس أولى بالشفقة منه بالتأنيب. لعن الله هذه الجريدة .. فهي تضطرني الى البقاء في مكتبي ليلا حتى أطلع على البرقيات الأخيرة التي ترد دائماً متأخرة .. أتظنين أن طفلك الكبير لا يود من صميم قلبه أن يشاهد « أمـــه الحبيبة » و « إخوته الأربعة » في المساء فيداعبهم ويتعشى معهم ويشرف على دروسهم ؟ . ولكن ما العمل ؟ . الواجب لا يرحم .

(يقبل أولاده النيام ويقبلها ويدخلان قاعة الطعام)

هي لنسرع في العشاء فقد وعدت أمي بقضاء السهرة عندها الليلة .

هو — (وقد وقفت اللقمة في حلقـــه فكاد يغص) أمك ؟ عجيب ، ألم نقض نهار أمس بكامله عندها وفي ضيافتها : غـــداء وفسحة بعد الظهر وسينما وعشاء وسهرة ، فلا يجوز لنا أن نرهقها .. هي بحاجة الى الراحة . أنسيت نصيحة الطبيب لهـــا ؟ ثم أنا تعب جداً .. وأمامي مقال يجب أن أعده الليلة للعدد الممتاز من الجريدة. وفوق ذلك كله لقد دعيت — بحكم المهنة — إلى ثلاث حفـــلات

فاعتذرت عن حضورها .. وهذه بطاقاتها .. خذي .. أنظري ..

هي – (تلقي بنزق البطاقات الثلاث بعيـــداً على المائدة ، وتتحفز كانها تريد القيام والامتناع عن الاكل وتقول:) أنا لم أتزوج جريدة .. أنا تزوجت رجلا يعيش كسائر الناس .. لا أراك في النهار إلا ساعة واحدة وقت الغداء .. وتعود في المساء متعباً في ساعة متأخرة للانكباب على هذه الكتب والأوراق .. هـــذه حياة لا تطاق ، (تجهش بالبـكاء .. ثم تبكي وتنتحب نادبة سوء طالعهــــا)

هو – (بنزق أيضاً) وأنا لم أتزوج سيارة لا تهـدأ في النهار ولا في الليل ولا تدخل المرأب (الكاراج) إلا في ساعـة متأخرة من الليل .. أنا تزوجت امرأة لأستقر وأهدأ وأحيا حياة مطمئنة فيتضاعف إنتاجي الأدبي . لقد قضينا نهار أمس كله خارج المنزل . ومن حقنا أن نستريح الليلة ونأخذ قسطنا من الراحة .. تعب في الجريدة وعيش منغص في المنزل ؟ .. هذه حياة لا تطاق .

(تمعن الزوجة في البكاء وتنتفض وتنشج نشيجاً مؤلماً ، يرق له قلب الزوج الذي يحبها حباً صادقاً ، فيقترب منها معتـذراً عن قساوته ويكفكف دمعها بقبلات يغتصبها اغتصاباً . على الرغم من مقاومتها الشديدة . ويقسم لها بحياة الأولاد الخمسة ألا يعود إلى مثل هذه المشاكسات فترضى عنه أخيراً بعد أن يعدها بالامتثال

دائماً لارادتها .. ويعودان الى متابعة الطعام ثم يستعدان للخروج فتسبقه الزوجة الى الباب الخارجي . وهنا يسمع الزوج زعقـــة مدوية ترتج لها جوانب المنزل فيسرع نحو الباب صائحاً :)

هو – ما الخبر ؟ ماذا جرى ؟

هي – (مرتجفة) أسرع .. أدركني .. صر .. صر .. صر .. صر .ها هو أمامي . اقتله قبل أن يفر .. لن أتخطى عتبـة البيت حتى تقتله . (وتعود الى الدار بادية الذعر وتنطرح على مقعد)

هو – (يحاول عبثاً البحث عن الصرصر فلا يعثر عليه فيعود الى زوجته) هيـا نخرج يا حبيبتي .. لقـد اختفى الصرصر ومضى في سبيله فلنمض في سبيلنا .

هي – لا والله (بكسر الهاء) . قلت لك لن أخرج حتى تقتله . فاني أجن اذا لمس الصرصر قدمي .

(يرن جرس التليفون) .

هي – آلو .. مساء الخير .. ماما . لا .. لن أستطيع الحضور هذه الليلة فزوجي متعب . ولديه مقال هام للعدد الممتاز سأساعده في كتابته . ثم أنت تحتاجين الى الراحة بعد تعبك نهار أمس .. أنسيت نصيحة الطبيب ؟ لا يا ماما لنْ أحضر . اعذريني . فقـــد خصصت هذه الليلة لطفلي الخامس. ها. ها . ها. تصبحين على خير.

هو – (مقبلا على سماعة التلفون) سأخبرها بالسبب الحقيقي.

هي –(تنتزع السماعة منه وتعيدها الى مكانها برفق) لا يا حبيبي

هو – (ينظر في المرآة ويرى تجاعيد وجهه المضنى وأثر الشيب في رأسه فيقول مشيراً الى نفسه) :

هذا هو الصرصر الذي يجب ان تخافيه ..

هي – (تضمه الى صدرها في عناق طويل) .

الرياء الديني ..

●

كنت أطالع أمس فصلاً من كتـــاب للمؤلف الانكليزي المعروف ه. ج. ولز ، عنوانه الاغنياء والفقراء فعثرت صدفة على حقيقة وقفت حيالها حائراً مفكراً ، ذلـــك ان المحسن الاميركي روكفلر كان مثـال التناقض في تصرفاته فهو – كما يقول ولز – « مسيحي متعصب لا ريب في وفائه لعقيدته ، يختلف الى الصـلاة في كنيسته الخاصة أيام الآحـاد ، وينشىء ابناءه مسيحيين مخلصين لدينهم ، وهو – الى جانب ذلك – معروف في أعمـــاله التجارية بالكذب والحنث باليمين وشهادة الزور والرشوة ، فبينما يتبرع ببناء كنيسة عظيمة تراه يرشو القضاة والحكام ويشتري ضمـائر النواب والشيوخ » .

وأعرف جماعة من ابناء بلادنا يشبهون روكفلر تمامـــاً ، فهم يؤدون الصلوات في اوقاتها ويحرصون عـــلى الصيام ويتظاهرون بالغيرة على الدين ثم هم مشهورون بشهادة الزور والكذب والحنث

بالأيمان وأكل اموال الناس بالباطل ويأتون المنكر على اختلاف انواعـــه !

لا شك ان روكفلر وهؤلاء يمثلون نوعاً من الرياء الديني عرفناه في البشر منذ ظهور الديانات ومنذ اجماع العامة عـــلى الاعجاب بالمتقين ، والى امثاله اشار الحريري – رحمـــه الله – في مقامته الصنعائية حيث يقول :

« رأيت شخصاً يطبع الاسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظه ، وقد احاطت به اخلاط الزُمر احاطة الهالة بالقمر ، فدلفت اليه لأقتبس من فوائده فسمعته يعظ الناس بقوله :

ايها السادر في غلوائه ، الجامح في جهالاته ، إلامَ تستمر على غيّك ... تبارز بمعصيتك مالك ناصيتك وتجترىء بقبح سيرتك على عالِم سريرتك ؟ الخ ... وأخيراً وبعد ان انفض القوم عنه ونال منهم ما اراد من صدقات ، أوى الى مغـارة واختلى « بتلميذ على خبز سميذ ، وجدي حنيذ ، وقبالته خابية نبيذ ...

*

ليست هذه المرة الاولى التي اقف فيها حائراً ازاء هـذا النوع من الرياء الديني الاجتماعي فلقد وقفت مثل هـــذا الموقف في ايام حداثتي حينما جرى في مجلس عمي ذكر رجل من هذا الطراز معروف بالرياء الديني يحافظ على العبادات ويرتكب المنكر فاستجليت عمي

عن موقف الدين من امثال هؤلاء فاجابني ان الله يثيب المحسن على اعماله الصالحة ، ويعذبه بما اقترف من ذنوب ! وليس ثمة علاقة بين العبادات والذنوب !.

ولكني – على الرغم من حداثة سني يومذاك – لم اقنع بهذا الجواب وقلت له :

-- لقد جاء في القرآن الكريم أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي،وبما ان عبادة هؤلاء لم تنههم عن الفحشاء والمنكر والبغي ، فهي اذن غير مقبولة عند الله ! .

وعبثاً حاول عمي اقناعي بان الله يقبل عبادة المرائين والمخلصين على السواء ، فلم أجد في حديثه ما يرتاح اليه ضميري ويطمئن اليه تفكيري الساذج .

والآن بعد عشرين عاماً – وحتى الموت – لا ازال ادينُ بهذا المعتقد : ان الله تعالى لا يفتح حساباً جارياً للمرائين ، وان السفلة والمجرمين العادين خير عند ربك مقاماً من هؤلاء ، لان المجرمين لم يضيفوا الى ذنوبهم جريمة الكذب ، ولم يستهزئوا بالله !.

الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون !. صدق الله العظيم!

وبعُد فعفواً ايها القارىء اذا ما استبحتُ وقتك في التحدث اليك عن ابناء هؤلاء ، ثِقْ تماماً اني لم افكر يوماً جدياً في اصلاحهم، لاني اعتقد ان اصلاح المجارير أجدى للمجتمع من التفكير في هؤلاء!..

في الحمام !

•

أهلاً وسهلاً !...

بهذه الكلمة ابتدرني غلام على باب الحمام ، فردد آخر على مقربة منه : اهلاً وسهلاً !.. وقال صاحب الحمام : — وأيضاً أهلاً وسهلاً ! وردد الحمام : أهلاً وسهلاً !..

وسط هذا الترحيب نزلت درجات الحمـــام فهرع نحوي شاب وقادني الى دكة عالية حيث فرش على أحد المقاعد مناشف حريرية — من صنع الوطن ! — واخذت انزع ملابسي وهو يتناولها مني برشاقة ويعلقها على المشجب ، الى ان جاء دور نزع ثيابي الداخلية فتناول منشفة كبيرة ونشرها وأشاح بوجهه عني ، فكانت ستاراً بيني وبين العالم !

كنت منصرفاً الى خلع ملابسي عندما خطر لي ان اراقب هذا الفتى المشيح بوجهه عني . نظرت اليه خلسة ، يا للفضيحة ! ان الشقي يراقبني من طرف خفي !.. لا بأس ، مشهد مـــن فضول البشر ،

عرفته قديماً ، فلم استفد شيئاً جديداً ، ولا اعتقد ان فتانا هـــذا استفاد شيئاً جديداً !..

*

كان الحمام غاصاً بالزبائن على اختلاف طبقاتهم ، بينهم العامل والتاجر ، الفقير والغني؛ والحمام -كما هو معروف - ثلاثة اقسام: البراني والوسطاني والحار ، وقد انتشر المستحمون في هذه الاقسام الثلاثة . ادخلني المكيّس الى مقصورة حجزها لي ، والقى على بابها ازاراً اشارة الى انها محجوزة ، فتذكرت - رغم بُعد المناسبة - ابا سفيان يدخل بيت سميّة في الجاهلية ويعلق سيفه على الباب!.. وانصرف المكيّس الى بعض شأنه على ان يعود بعد قليل .

المقصورة مظلمة لولا انوار ضئيلة باهتة كانت تتسرب من زجاج ملون في أعلى القبة ، والهواء رطب فاسد يثقل الصدر ، فلم اطق البقاء طويلاً . ضاق صدري فخرجت الى ردهة كبيرة بين المقاصير وجلست على مصطبة استنشق قليلاً من الهواء .

رأيت الناس ممدّدين على البلاط الحار ، هذا يكيّسه المكيس، وذاك يليّفه المليّف ، والآخر ينتظر دوره ، وكلهم عراة الا من ازار يشدونه على وسطهم .رأيت الفقير والغني، الوجيه والصعلوك، فلم استطع التمييز بينهم ! لقد خلع الفقير اطماره البالية ، والغني حلله الغالية، وبدوا جميعاً في زي آدم - ربّ كما خلقتني -وزالت

الفوارق الاجتماعية ، وعاد الناس بشراً - كلهم من آدم وآدم من تراب - لا يختلفون الا بالقوة العضلية الجميلة التي اكتسبتها اجسام الفقراء من مزاولة اعمالهم القاسية المجهدة ، والترهل والبدانة القبيحة في اجسام الاغنياء المترفين !..

*

لست أدري لماذا اخذت اتخيل يوم الحشر وانا استعرض هذه النماذج البشرية . عدد لا يحصى من المخلوقات ، بشراً وحيوانات ، نساء ورجالا واطفالا سيحشرون عراة في يوم واحد ! يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . هذه الجماهير ستقف بين يدي الله عارية - كما شاهدتُها في الحمام - فتزول الفوارق الاجتماعية والجنسية ، ولا يفضل احدٌ احداً الا بالتقوى !.. وهناك - كما في الحمام - طاسات ساخنة وطاسات باردة ، فاما الساخنة فزقوم ويحموم وغسلين ، واما الباردة فروح وريحان وجنة نعيم !..

*

عدتُ الى مقصورتي وتناولت الطاس واخذت اسكب الماء على جسدي ثم افلت الطاس من يدي فوقع على ارض الحمام فسمعتُ لسقوطه رنة موسيقية جميلة ! تذكرت ما يقال من ان صوت الانسان يتحسن في الحمام، فاغتنمت فرصة وجودي وحدي، قبل عودة المكيّس ، فاخذت اردد بصوت خافت اغنية قديمة

كانت والدتي تغنيها لي في الحمام : « كل البنات تزوجوا ، الا انا بشمشم عالريحـــه » ، والواقع اني شعرت بتحسن نسبي في صوتي فانتعشتُ وانتقلت فوراً من الاغاني العادية الى الادوار والليالي واخذت اقلد عبد الوهاب في احدى لياليه – متصرفاً فيها قدر استطاعتي – عندما دخـــل المكيّس يحمل كيساً وليفة وصابوناً وطبقاً من نحاس ، فانقطعت عن الغناء وعُدت اتكلف الرصانة..

كان المكيّس شيخاً هرماً تبدو على وجهه سيماء الكآبة ، وكان من اولئك العمال الذين يقبلون على مهنتهم لا حباً بهـا ولا ارضاء لزبائنهم ولكن رغبة في الحصول على قوت يومهم . اخذ ذراعي بين يديه وطفق يدلكها بمهارة ، ثم اخذ الثانية ، ثم ربت براحة كفـه على كتفي واشار إليّ ان اتمـدّد على ظهري – وهو لا يتكلم – فامتثلتُ ، ولما انتهى اتى بالحركة نفسها واشار اليّ ان انقلب على بطني فامتثلتُ ايضاً – وكان طيلة هذه المـدة صامتاً – فبدا لي ان اتحدث اليه فقلت :

– الا يضيق صدرك من البقاء ليلاً ونهاراً في الحمام ؟

– لقد تعودنا يا سيدي ! ما العمل ؟ يجب ان نشتغل لنعيش !.

وعاد الى عمله صامتاً صابراً ، واما انا فكنت افكر في التقادير التي سخرت لنا هذا الرجل فحرم نفسه النور والهواء وقبع في هذه الزاوية من كوكبنا الجميل ، يغسل ادران الناس بلا ملل ليعيش!.

واخيراً خرجتُ ولبست ثيابي - وكان الفتى مشيحاً بوجهه هذه المرة بصورة لا تقبل الريبة ! - ونظرت حولي فاذا بالفقير قد عاد الى اطماره البالية والغني الى حلله الغالية - كنت افضل ان اراهما دائماً كما كانا في الحمام - وارتسمت في مخيلتي صورة ذلك العجوز يغسل ادران الناس ليعيش ، واتجهتُ نحو الباب بينما كان صاحب الحمام يقول : نعيما ، والغلام على مقربة منه يردد : نعيما ، والحمام باسره يردد : نعيما !.

يأكلون في بطونهم ناراً !...

●

كنت في حداثتي هزيلًا رقيق البنيـــة شاحب الوجه ، وكان هزالي هـذا يروع والدتي ، فقد سمعتْ حكايات كثيرة عن اطفال نشأوا ضعاف البنيـة ثم ماتوا في شبابهم « بالمرض » فما كان يزور بيتنا طبيب الا عرضت عليه والدتي، بعد ان يُنهي المهمة التي حضر من اجلهـا ، ان يفحصني ؛ فكان الطبيب يجس نبضي ويستمع الى دقات قلبي ثم يربت على كتفي ويبتسم مبشراً بصحتي الجيدة !

وكانت اجوبة الاطباء على نوعين :

الاول : اني مصاب بفقر في الدم وهذا يحتاج – على زعمهم – الى تغذية ومقويات .

والثـاني : ان بنيتي لا تقبل بفطرتها السمنة وان مزاجي يحتم عليّ ان أظلّ هزيلا !

وكانت والدتي تستمع بانتباه الى آراء الطبيب ثم ترددهـا على مسامع والدي وأقربائي والاصدقاء وتوسّعها ، وتربط حكايتي بحكاية

خالي – خالها – فقد كان هذا رقيق البنية ، هزيلا في صغره، ومع ذلك فقـد عاش طويلا ، فلم لا اكون مُخْولا ! فالجرة اذا قلبت على فمها جاءت البنت لأمها ، وثلثا الولد لخاله !...

ويظهر انها لم تكن في قرارة نفسها تطمئن تماماً الى هذا المنطق، فكانت تعمد الى زيت السمك والمستحضرات الطبيـة تسقيني منها بسخاء ، وتغذيني بالاطعمـة المقوية ، فتراقبني على المائدة – دون سائر اخوتي – ولا تسمح لي بمغـــادرة الخوان قبل ان اجهز على رغيفي ، وكانت تختار لي اكبر قطع اللحم في طبقي وتطلب مني بلطف وابتسامة حلوة الا اترك منها شيئاً !

كل هذه العناية لم تُفدْ شيئاً، فقد ظللتُ هزيلا، وكلما دخلت الحمام مع والدتي – كنت إذ ذاك في السابعة من عمري ! – سمعتُ تنهداتها حينما كانت ترى عظام ظهري الناتئة فتقول :

– عجيب أمر هذا الغلام ، ما أشد هزاله !.. كأنه يأكل من مال الوقف !...

وكان بالقرب من منزلنـــا رجل يدّعي الكرامات يُعرف بالسبسبي ، وكانت الالسن تتناقل انباء معجزاته، فهذه امرأة عاقر، حار في عقمها نطس الاطباء، ذهبت اليه فحملت من الزيارة الاولى . وهذا طفل مقعد حملوه الى السبسبي فكبّسه فخرج ماشياً .

فلماذا لا ينظر هـذا الروحاني في هزال هذا الطفل النحيل ؟

ولماذا لا تأتيني الصحة عن طريق التمائم والتعاويذ ؟..

اخذتني والدتي اليه فتأملني ملياً ثم قال :

ــ الحكاية واضحة ، ان جماعة من الجن يكيدون لهذا الغلام ، وهاك تعويذة تُعيد كيدهم الى نحره .

وتناول ورقة وطفق يخط عليها بالحبر الاسود البلدي وبقلم من قصب رموزاً وكلمات لا اذكر منها سوى هــذه الاشارات في آخرها :

م م م م م
م م م م
م م م
م م
م

ثم طوى الورقة طياً محكما وطلب من والدتي ان تنقعها في الماء وفي العراء ثلاثة ايام بلياليها ثم تسقيني منها كل يوم جرعة ، والشفاء أكيد باذن الله .

اخذت والدتي الورقة ونقدته ريالا « مجيدياً » ووعدته خمسة اذا شفي الغلام ...

*

نقعت والدتي الصحيفة في الماء فذاب الحبر وتغير لون الماء ، وفي صباح اليوم الثالث جاءتني تحمل الكأس وقالت بلطف :

ــ اشرب يا بني ، اشرب يا حبيبي ...

ــ ولكن هذا الماء قذر يا أماه ، هذا حبر ، فكيف أشربه ؟..

شربتْ منه والدتي قليلا ــ لا لتطرد الجن ، ولكن تشجيعاً لي

واقناعاً – غير اني أصررت على الرفض، فعمدتْ الى القوة والعنف وأمسكتْ بيدها كلتا يديّ وادنت الكأس من فمي، فنفرتُ منها بعنف واصطدم رأسي بالكأس فانقلبت ومال الحبر على ثيـــابي وثيابها ، وهكذا ختمت المهزلة ...

*

وبعدُ فانت ترى اني كنتُ في صغري عرضة لتدجيل المشعوذين وأحابيل الاطباء .

فاما الاولون فلم تنطلِ عليّ شعوذتهم رغم حداثة سني .

وأما الآخرون فقـد استمروا يعالجونني ، وانا ازداد هزالا ، الى ان فتح الله عليّ ، وكشف الغشاوة عن عينيّ ، فهجرتُهم وطلّقت عقاقيرهم بالجملة، وتركت الطبيعة تأخذ مجراها، فاكتسبت بفضل الامتناع عن العلاج ، عافية أحمد الله عليهـــا وأتمنى مثلها لجميع الناس ...

*

بقي أمر واحد ، لقـــد سمعتُ من والدتي ان مال الوقف لا يُسمن .

لقد صدّقتُ هذا القول صبياً ، ولكن اختباري في الحيـــاة واختلاطي بالناس أفهماني ان والدتي كانت مخطئـــة ، وان أسمن الناس هم الذين يأكلون أموال الوقف ...

على قارعة الطريق

●

من المشاهد المألوفة عندنا ، ان يستوقفك احـــد معارفك في الشارع ، وبعـــد ان تتبادلا التحية بالمصافحة ، يدور بينكما الحوار التالي :

– كيف الحال ؟

– مشتاقين .. وانت كيفك !

– عال الحمدلله ... لم نرك من زمان ، اين هذا الغياب ؟

– والله انا هنا ، ولكن انت مختف هذه الايام ..

– ما العمل المشاغل كثيرة كما ترى ...

– وبعد فأين كنت ؟

– والله كنت عند النجار أوصيه على طاولة للاولاد ..

– وكيف الاولاد ؟ كم اصبح عددهم ؟

– الحمد لله بخير .. وانت كيف حال جماعتك ؟

– مبسوطين .. والى اين ذاهب الآن ؟

– عندي زيارة قصيرة في نهاية الشارع .. وانت اين كنت ؟
– والله كنت في البيت ..
– والى اين .. من هنا ؟..
– الى الدكان ..
– دعنا نراك .. (ويضغط على يده ايذاناً بانتهاء الحديث) .
– وانت كذلك .. بخاطرك .
– مع السلامة .. سلم .

وهكذا ينقضي هذا الحوار التافه على قارعة الطريق ، ويسير كل منهما في سبيله بعد ان عرف الواحد اين كان رفيقه واين سوف يكون، وبعد ان اضاعا خمس دقائق – على اقل تعديل – في الشارع يتبادلان آلياً هذه الاسئلة التافهة ..

أنا افهم ان يقف المرء مع صديق حميم لم يره من زمن بعيد فيستعلم عن صحته واعماله ، ولكني لا افهم هذه الوقفات يقفها الناس مع معارفهم ، طوال النهار يضيعون اوقاتهم في مجاملات لا طائل وراءها ..

وقد شكا شاعرنا الكبير ابن الرومي هذا الطراز من الاصدقاء يستوقفونه في زحمة الشارع وأبدع في وصفهم حيث يقول رحمه الله:

ولي اصدقاء كثيرو السلام عليّ وما فيهم نافع
اذا انا ادلجت في حاجة بها مطلب نازح شاسع

فلي أبداً معهم وقفـــة وتسليمة وقتها ضائع ...
وفي موقف المرء عن حاجة تيممها شاغـــل قاطـــع
ترى كل غث كثير الفضول مصحفـــه مصحف جامع
يحدثني من احاديثـــه بمـــا لا يـــلذ به السامع
احاديث هن كمثل الضريع آكله ابداً جائـع
اولئك لا حيهـم مؤنس صديقـاً ولا ميتهم فاجع

وبعد فاننا في هذا الشرق العربي نضن بكل شيء ما عدا الوقت فنحن ننفقه جزافاً وبسخاء عجيب فيما لا يجدي نفعـاً .. ولو اننا ذكرنا قول شوقي المأثور بان « دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان .. » ورحنا نحصي هذه الساعات نضيعها في مثل هذه المجاملات لاحصينا منها العدد الوفير ..

انا لا احب الوعظ ، وأمقت الكتاب الذين ينصبون انفسهم واعظين في الناس ، ولكن ذكرني بحديث هذه الساعات الضائعة ، مشهد رأيته أمس في احد ميادين العاصمة إذ وقفت سيارة تقودها امرأة – اجل فالنساء السائقات كثيرات والحمد لله – الى جانب سيارة قادمـــة تقودها امرأة ايضاً ، فسدّت السيارتان الطريق ، واخذت السائقتان بعد المصافحة تتبادلان المجاملات وهمـــا خلف المقـود ، وطال بهما الحديث فشلّت حركة السير ، واستغرقتا في الحوار لا تأبهان لزمامير السيارات تملأ الفضاء وتطالب بمنفذ لها ،

الى ان تدخل شرطي المرور بينهما وهددهما بكتابة « الضبط » حتى افترقتا بسلام ..

حدثني صديق قادم من نيويورك ان الاميركيين يعتبرون الشوارع للسير وليست للوقوف .. واذا وقف احدهم في زحمة الشارع داسته الجماهير وتابعت سيرها غير مكترثة ..

قد يكون في هذا القول بعض المبالغة ولكن فيه دلالة واضحة على ان الاميركيين يفهمون الحياة دقائق وثواني .. ويفهمونها جداً وعملا . واما نحن فنفهمها لهواً وجداً في آن واحد .

ومن يدري فلعلنا مصيبون .. ولعل الحياة نفسها لا تستحق مثل هذا الجد ! .

آخر كلمات الامير شكيب قبيل وفاته

●

كان آخر العهد بيني وبين الامير الراحل ، قبيل وفاتـــه بايام معدودات يوم دعيت الى حفلة تكريمية اقامها آ ل الغندور في دار التاجر المعتبر السيد محمد ابو رفيق الغندور ، وداعاً للدكتور منير الغندور ليل سفره الى بروكسل سكرتيراً للمفوضية اللبنانيةهناك ، وكان الامير شكيب واسطة العقد في تلك الحلقة التي ضمت نخبة من اركان الحكومة وعلية القوم والادباء ورجال الصحافـة انتظمت حول امير البيان تستمع الى درره الغالية فتضاءلت السياســـة واحداثها الفانية امام ومضات الخلود تبرق بين الفينة والفينة بياناً ساحراً وحديثاً ممتعاً على شفتي الارسلاني الكبير .

وكان الامير بادي التعب والاعياء فقد نهض من فراشه عـلى الرغم من اوامر الطبيب المشددة وحضر الحفلة يشارك آ ل الغندور افراحهم .

ولم يمكث الامير حول المقصف سوى دقيقة أو دقيقتين، خرج

على الاثر الى الشرفة يطل من اعالي « برج أبي حيدر » على بيروت المنبسطة امامه كالكف تشع بالانوار ، و كأنه ارتاح الى هذا المنظر يتمتع به بعد غياب تسع سنوات، فلم يشعر بالنسيم البارد ، و كنت قد لحقت به فقلت له :

ـ اخاف عليك شر هـذه النسمة الباردة ، فهل تأذن بان ندخل البهو ؟

فابتسم الامير وقال : أين بردكم هذا من برد سويسرا ؟ لقد ألفت جو الالب . واخذ كرسياً وجلس بعد أن تدثر بمعطفه ، ثم قال :

ـ كان يجب عليّ ان اعمل بنصيحة الطبيب فلا اغادر فراشي.. ولكن لعلك لا تعلم بهـذه الرابطة الوثيقة التي تشد اسرتنا الارسلانية بآل الغندور ... فاعلم ان والدتي - وهي جركسية الاصـل ـ نسيبة والدة السيد عون الغندور وقد نشأتا معاً منذ حداثتهما كشقيقتين حبيبتين وانا ادعو والدة عون خالتي ، كما يدعو عون والدتي خالته ... فانت ترى انني والامير عادل ابناء خالة آل الغندور ... فافراحهم افراحنا واتراحهم اتراحنا ... وما كان يصح ان اتقاعس عن حضور هذه الحفلة وهي حفلتي ...

وترقرق الدمع الكريم في عيني الامير معرباً عن هذه العاطفة الجياشة الصادقة .

قلت : ولماذا لا تكتب يا اميري مذكراتك ؟ لقـد حضرت حربين وشاهدت عن كثب خلال هذه الاعوام الاخـيرة ، وانت في سويسرا ، احداثاً جساماً يجب ان تدونها للعالم العربي ببيانـك الساحر في مذكراتك . ولعلك كتبتها ...

– لا والله ... لم اكتب سوى اشياء بسيطة ... وكنت أود ان اباشر تدوين مذكراتي الآن ولكن هيهات ... فانا ممنوع عن الكتابة ... ويدي لا تقوى على مسك القلم وخط كلمة واحـدة .

قلت : انت تملي علي وانا اكتب !

فاجاب مبتسما بمرارة : وهل اقوى عـــلى الحديث ... وهو يتطلب جمع الافكار وحصرها وتنسيقها وهذا ليس في استطاعتي ..

– ولكن حرام ان يحرم العالم العربي وهو على عتبة نهضتـه الجديدة خلاصة تجاربكم واختباراتـكم السياسية طوال ستين عامـاً من الجهاد في سبيل العروبة !

صمت الامير برهة يفكر ثم نظر الى القرى المنتشرة كالمصابيح في اعالي الجبل ، وقال :

– أنا مريض ... وأشعر بدنو الاجل ، وانا احمد الله عز وجل الذي سهل لي ان افارق الحياة على ارض هذا الوطن الذي احببته وقاسيت من اجله التشرد والنفي والاضطهاد . اجل سأموت هنـا قرير العين ناعم البال فتختلط رفاتي بتربة هذا الوطن بعد أن أتم

الله نعمته علي فشاهـــدته سيداً حراً عزيزاً . انا سعيد بان ادفن في تربة طاهرة لا ترفرف فوقها راية اجنبية ... وانا سعيد ان الاقي وجه ربي الكريم فاعيد هذه الامانة الى بارئها بعد ان تحققت احلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخـــبر رفاقي في الجهاد بان تضحياتهم لم تكن عبثاً ...

وهنا ذرفت عينا الامير دمعتين كريمتين ...

ونهض الامير عن كرسيه وجذبني اليه وقال ؟

– لي وصية واحدة اود ان اوصي بها ، فهل تعدني بان تنقلها الى العالم العربي بعد وفاتي ؟ ...

فاجبته : لك العمر الطويل ان شاء الله ...

قال : لا ... بل تعدني بنقل الوصية .

قلت : نعم !

فطوقني بذراعين مرتجفتين وقال بصوت اجش كادت تخنقـــه العبرات :

– اوصيكم بفلسطين ...

ساعة في « العصفورية »

●

وأخيراً دخلت « العصفورية » — ولو الى حين — فتحققت امنية طالما منيت نفسي بها ، وهي أن اخلص من دنيا العقلاء وما فيها من تقاليد ومراسيم واوضاع فاعيش ساعة من الزمن في عالم المجانين ، أتعرف الى أسراره وخفاياه ، واختلط بهؤلاء الذين حرموا نعمة العقل فاراقب عن كثب سلوك المرء بعد ان يخرج من سلطان عقله ..

يا الله .. ما هذا الانتظام البديع في دنيا المجانين ، بل ما هذه النظافة وما هذا الترتيب ! اربع عشرة بناية انيقة منتشرة على هذه الرابية الخضراء ، تتخللها ممرات وطرق مزفتة ، وتحيط بها جنائن زاهرة وتظللها اشجار وارفة ! بل ما هذه البقعة الممتازة اختارها العقلاء للمجانين ، تطل على العاصمة المنبسطة امامها كالكف والبحر وراءها ، وتطل على الجبال والاودية المترامية على جوانبها ، منظر من اروع مناظر لبنان .

ثم ما هذا الهدوء يسود جو المكان ، فلا تسمع الا زقزقـــة العصافير وحفيف الاشجار يداعبها النسيم ، فلا ضجة ولا ضجيج .. ولولا بعض الممرضين يتنقلون من بناء الى آخر لخلنا البقعة خـلواً من السكان ..

استقبلنا الدكتور ميللر الاختصاصي بالامراض العقلية رئيس المستشفى ومعـه مساعده المستر هاتشنز والطبيبان مانوكيان وايفازيان بلطف وحفاوة بالغين ، فعرفنا منهم ان عدد المرضى يبلـــغ ١٥٤ وان زبائنهم من الرجال اكثر عدداً من النساء فهناك ٨٦ مريضاً يقابلهم ٦٨ مريضة ، فهل يكون الرجال اكثر استعداداً للجنون من النساء ؟ .

وعلمنا ايضاً ان ٣٥ في المائة من المرضى يخرجون من المستشفى اصحاء بفضل ما يلقونه من عناية فنية .

وطفنا المستشفى بجميع أقسامه يقودنا في طوافنـــا الدكتور مانوكيان ، فاعجبنا بما شاهدناه من عناية ونظافة وسهر على راحة المرضى ، كما اعجبنا بالطريقة اللطيفة التي يسلكها الممرضون والممرضات في معاملة المجانين ، فلم نجد اثراً لما كنـــا ننتظره من شدة وقسوة وغلظة . بل شعرنا ان جميع من في المستشفى — ونحن في جملتهم .. — يؤلفون اسرة واحدة ، فقد خيل للمجانين اننـا زملاء جدد فكانوا يرحبون بنا ترحيباً حاراً ..

وكان اول ما زرناه قسم الجنون المزمن العضال فاذا بالمجانين يسرحون ويمرحون في الحديقة - كل واحد منهم يجن على طريقته الخاصة - فلا يتدخل أحد في جنون زميـــله ، ولا يؤذي بعضهم بعضاً .. بل اذهب الى أبعـــد من ذلك فاقول اني رأيت منهم احترامـاً وتقديراً لجنون زملائهم .. وهذا غير متوفر دائمـــاً لدى العقلاء ..

اقترب منا عميد المجانين المزمنين وهو عجوز يتكلم عدة لغات ويتقنها وحيانا بادب جم فسألناه عما يفعل فاجاب :

- انا كما ترون مشغول جداً بتنظيم شؤون العالم منـــذ سنة ١٩١٣ ،فقدمضى عليّ ٣٤ عاماً في المستشفى الفت خلالها٢٥ كتاباً عن السلامة الاجتماعية .. لقد ارسلت اوامري الى المسيو دلكاسه وبونكاره وكلمنصو وويلسون ولويدجورج..هؤلاء جميعاًموظفون في دائرتي . انا انشأت عصبة الامم ، وانا صاحب منظـــمة الامم المتحدة .. (لم يعد ثمة مجال للعجب من اعمال هذه المنظمة !) وانا رئيس ستالين وتشرشل وروزفلت .. الخ ..

ثم اردف قائلاً :

- انا أملك أعظم قصر في لبنان ولولا كيد بعض القناصل لكنت الآن في قصري .. ولكن ..

وعلمنا من الطبيب ان العميد - وهو أقدم المجانين - مصاب

بجنون العظمة .. وهو نوع معروف في العصفورية وخارجها ..

ولاحظت من بعيد شاباً في مقتبل العمر يقترب منا وهو يحمل بيده ورقة يحرص عليها حرصه على كنز ثمين . فلما وصل قال :

– السلام عليكم ، انا شاعر صيداء .

– انت شاعر ، اهلا بك .. انا والله مجنون بالشعر .. وفتح صاحبنا الورقة واخذ يقرأ منشداً بلهفة :

محبوبتي درة في بطن لؤلؤة كيف السبيل اليها في المحيطات ؟
حبيبتي درة في جوف قنبلة ضاعت فتيلتها بين السموات !

فقلت له :

– انت شاعر رمزي ؟ أحسنت والله .. ان عشيقتك ولا ريب قنبلة ذرية .

فهز رأسه آسفاً وقال :

– وانت لا تفهم ايضاً ..

ومضى عني بازدراء وهو يردد حزيناً يائساً :

« ضاعت فتيلتها بين السموات ... »

والواقع انني ضعيف في فهم الشعر الرمزي الصادر عن العقلاء فكيف بالمجانين الرمزيين .

وانتقلنا الى القسم الخاص بالجنون الحاد ، فاذا العدد أكبر والمراقبة أشد ، واختلطنا بالمجانين فشاهدنا منهم ما يثير الضحك

ويفتت الأكباد في وقت واحد . هـــذا يؤذن وذاك يرقص .. والآخر يسبح .. واقترب مني واحد واختطف سيكارتي خلسة من فمي وفر بها ظافراً .. بينما سألني أحدهم عن مختار محلتي فقلت له تخلصاً منه انه مات فثار ثائره وقال :

ـ يجب ألا يموت .. ولماذا يموت وكيف يموت .. يستحيل ان يموت ..

ثم فكر قليلا وقال :

ـ إذا كان قد مات .. فقد مات .. ألا ترى ذلك ؟ .

فهززت رأسي بالموافقة فكشر عن انيابه ومدّ لي لسانـــه وراح يغني ..

وكان قسم النساء اكثر هدوءاً من قسم الرجال فاستقبلتنا على الباب فتاة مجنونة رحبت بنا بضحكة طويـــلة .. وشاهدنا فتاة أخرى تنهض من سريرها وتلحق بنا وتسأل عن رسالة اضاعتها على جسر اللنبي (كذا) فحملتها الميـــاه الى شرق الاردن في سوريا الكبرى (كذا) ـ لقد اصبحت سوريا الكبرى حديث المجانـين ايضاً ـ فاقسمت لها انني سوف أبحث عن الرسالة واعيدها اليها ..

ولما صعدنا الطابق العلوي ، لاحظنا صمتاً منقطع النظـــير ، فالمجنونات قابعات في سررهن ، هذه تطالع الصحف، وتلك شاخصة بانظارها الى السقف، والثالثة تحدق في الارض.. فقال لنا الطبيب :

– هذا الجنون الهادىء هو أخطر انواع الجنون ، وهؤلاء الصامتات لا يفكرن بشيء سوى الانتحار .. فهن لا يؤذين احداً ولكنهن مصممات على مغادرة الدنيا .. ولذلك اكثرنا في هـذا القسم من الممرضات والمراقبات .. لنحول بينهن وبين الموت .

وبعد ان زرنا غرفة المعالجة بالكهرباء غادرنا قسم النساء فاذا بالفتاة التي رحبت بنا بضحكة طويلة .. تودعنا هذه المرة بازمة بكاء حادة مفجعة تقطعت لها قلوبنا وطفر الدمع من أعيننا فالاسى يجلب الاسى ، وسيظل منظرها منطبعاً بخيلتي ما حييت ..

وأتيح لنا ان نزور ملاعب التنس وبركة السباحـة وبناية الاشغال التي يتسلى فيها الناقهون ، والمطعم والمطبخ فاعجبنا بما شاهدناه من أسباب العناية والاتقان والامانة في خدمـة المرضى المنكوبين ..

والحقيقة ان مؤسسة العصفورية حرية بكل مؤازرة فهي تقوم بعمل انساني جليل يستحق ان يمد اليه المحسنون يد المساعدة فيخففوا عن هؤلاء المنكوبين شيئاً من العذاب ويفسحوا امامهم مجالا للشفاء.

واقتربنا من الباب الخارجي واذا بعميد المجانين يهرول مسرعاً نحونا ويناولني ورقة ففتحتها وقرأت فيها بالانكليزية ما يلي :

– ادع الناس الى السلام ..

الله ، الله ، .. مجنون يدعو الى السلام .. فهل يسمع العقلاء ؟.

وبعد ، فقد دخلت العصفورية .. واؤكد لكم اني خرجت منها .. ولعلي خرجت الى « عصفورية » اكبر .. ولكني ما شعرت يوماً بنعمة العقل مثل شعوري بها وانا انحدر بالسيارة نحو العاصمة ومشاهد المائة والاربعة والخمسين بائساً تتراقص في مخيلتي ..

٤ طينات في ٤ جدران

●

[في صالون المستأجر حوالى الساعة الثامنة صباحاً]

المستأجر – اهلاً وسهلاً بالجار ابي كمال... خيراً ان شاء الله...

المؤجر – كل ايامك خير وبركة ... لا مؤاخذة لازعاجك في هذه الساعة المبكرة ، لقد استلمت ولا شك كتابي المسجل المرسل بالبريد ...

المستأجر – ها... ها ... تذكرت... مبروك... مبروك... فقد علمت من هذا الكتاب انك عزمت – بعونه تعالى – على تزويج ابنك كمال... وانك تطلب مني اخلاء الشقة ليسكنها نجلك الكريم مع عروسه المصون ... ولكن ابنك كمالا حرسه الله لا يزال على مقاعد الدراسة ، ويخيل إليّ انه لم يبلغ الثامنة عشرة... فعلام هذا الزواج المبكر ؟

المؤجر – هذا تقليد في اسرتنا ياسيدي فنحن درجنا على الزواج المبكر، انا تزوجت في السابعة عشرة وام كمال في الثالثة عشرة

وكذلك ابي واخوتي واخواتي... ثم انت تشعر معي بهذا الفساد الخلقي المنتشر في البلد بفضل هذه المدنية الزائفة، وتلمس معي الخطر الهائل الذي يهدد شبابنا ... لا سيما السينما وحمامات البحر والاختلاط على البلاج... الزواج يا سيدي احصن للفتى والفتاة واسلم عاقبة... ثم اني اريد ان افرح بابني وانا بعد في قيد الحياة.. « عقبال اولادك والعايزين » واريد ان يربي ابني اولاده بنفسه فلا يتزوج كهلا متهدماً ويترك صغاره ايتاماً يكل تربيتهم الى الناس.. ألا ترى معي ذلك ؟

المستأجر – هذا بديع... ولكن اين اذهب انا وزوجتي واولادي ؟.. اليس بوسع المحروس ان ينتظر قليلاً حتى ينجز دراسته على الاقل او حتى تنفرج ازمة المساكن ؟...

المؤجر – يستحيل فقد اعددنا كل شيء للخطوبة والزواج ... واني استطيع ان امهلك شهراً كاملا !

المستأجر – هذا لطف زائد منك يا جار الرضا ... ولكن... لا مؤاخذة ... هل يحق لي ان اسألك عن عدد اولادك الذكور ؟

المؤجر – ولو... انت مستأجر عندي منذ سنوات ولا تعلم ان كمالا ابني الوحيد بين خمس بنات ؟

المستأجر – هذا ما اعلمه على الضبط . وهذا ما ادهشني حين اطلعني زملائي الثلاثة المستأجرون في عمارتك على كتاب مماثل

مرسل بالبريد المسجل تلقاه كل منهم وفيـــه تطلبون منهم اخلاء السكن لتزويج ولدكم فهل ينوي المحروس احتلال المنازل الاربعة أم ان زوجة واحدة لا تكفيه فهو من اتباع تعدد الزوجـات .!

المؤجر – ومن يستطيع ان يكفي زوجة واحدة في هـــذه الايام... لا يا سيدي لقد خبطنا اربع طينات في اربعة حيطان فلا بد ان تلصق واحدة !

المستأجر - واذا لم تلصق واحـــدة منها فهل تلصق المرأة بكمال ؟...

المؤجر – طبعاً لا... اسمع يا اخي لنتحدث بصراحة .. الحالة معنا ضيقة كما تعلم ...

المستأجر – الان دخلنا في صلب الموضوع ...

المؤجر – وانا عاطل عن العمل واعيش مع عائلتي من هـــذا العقار ولست املك سواه .

المستأجر – هذا صحيح.. فماذا تريد ، ألم اتحمل في العام الماضي زيادة عظيمة في اجرة المنزل . فوق القانون بمراحل .

المؤجر – نعم.. ولكن المعيشة غالية..

المستأجر – وماذا تأمر الان ؟

المؤجر – استغفر الله.. اريد ضم زيادة جديدة كزيادة العام الماضي ...

المستأجر – هذا مستحيل ..

المؤجر – اذن نزوج كمالا ..

المستأجر – فلنقسم الفرق مناصفة ..

المؤجر – سنزوج كمالا ..

[تجري مساومة طويلة لا يتنازل المؤجر خلالها قرشاً واحداً]

المستأجر – طيب يا سيدي.. لك ما تريد .

المؤجر – بارك الله فيك يا جار الرضا ..

– وكمال ؟

– يستطيع ان ينتظر ..

– والزواج المبكر ، والفساد الاخلاقي ؟

– كلام فارغ...

– وتربية الاولاد ؟

– يتولاها الله...

– اذن فقد لصقت طينتك ؟

– نعم ، ولكن بقيت الطينات الثلاث ...

ربيعان في الغوطتين

•

أجل رأيت الربيعين في دمشقٍ : ربيع نيسان وربيع الجلاء .. هذا بردى يصفق بالرحيق السلسل وهذه الرياض الغناء على ضفتيه تستقبلك وقد ارتدت حلتها القشيبة من بقايا الزهر وطلائع الورق الأخضر الريان .. وهذه دمشق الضاحكة وقد لبست ثياب العيد البهيجة .. وأية بهجة أعظم وأوقع في النفوس من بهجة الجلاء ، جلاء قوات البطش والعدوان بعد ان استباحت حرمات العرب طوال ربع قرن ..

حضرت مهرجان الجلاء في الربيع الماضي ، وكان عظيما رائعاً ولكن مهرجانك اليوم يا دمشق أروع وأعظم .. فقد كشف عن روح جديدة ، لمستها في هذا التنظم الفذ وهذه الوجوه المشرقة ، وجوه الفتيان والجنود ، يشع فيها العزم والمضاء والايمان بحقها في الحياة الحرة العزيزة ..

كان نصيبي ان اجلس في السرادق على مقربة من نجلي فخامة

الرئيس القوتلي ، حسان وهو في الحادية عشرة ومحمـــود وهو في الخامسة ، وكان محمود ببزته العسكرية رمزاً للجندي العربي الصغير ودليلاً رائعاً على ايمان فخامـة السوري الاول بالجيش السوري ، سياج الوطن وحارسه الامين ، فقـــد اعرب فخامته بهذه البادرة الكريمة عن منحه نصف ما يملك للجيش الباسل - البنون زينـــة الحياة الدنيا - فهذا نجله الاصغر لقد وهبه ، وهو بعد طفل ناشيء للشرف والوطن ..

واقترب من السرادق طفل بائس فقـير لا أدري كيف شق طريقه وسط الزحام فحمله رجال الشرطة وهموا بقذفه الى الخارج واذا بالجندي الصغير محمود يصيح بهم ، وقد بدت على وجهه الجميل امارات الشفقة :

- دعوه يتفرج ..

فكانت هذه الكلمة تخرج من فم هذا الصغير درساً رائعـاً من دروس الديموقراطية الصحيحة .. هـــذا الطفل من الشعب ... وشكري القوتلي من صميم الشعب ايضاً ..

وسألت حساناً النجل الأكبر عن المدرسة التي يرتادها فاذا هو طالب من الصف الخامس من مدرسة الحكومة السورية الرسميـــة (التطبيقات) ، واما محمود فطالب في روضة الاطفال الرسمية في شارع عمر المختار ..

وهذا درس آخر في الديموقراطية الحقة اسوقه لأبناء الجمهوريات والملوك في كل قطر في العالم ، ان السوري الاول يرسل ولديه الى مدارس الشعب يجلسان جنباً الى جنب مع ابناء الشعب في معاهد الحكومة التي يثق بها الرئيس ، لا في المعاهد الاجنبية ..

ويبدأ الاستعراض وتمر فرق الكشاف والفتوة والشرطة والدرك والجيش بخطواتها الممتازة ونظامها البديع ، بين هتاف الجماهير وتصفيقهم .. ولكن سكرتير المفوضية الفرنسية الجالس مع رجال السلك الدبلوماسي لا تعجبه هذه المناظر فتراه يلقي بملاحظاته المستهجنة المنكرة في كل مناسبة .. وتشاء الاقدار ان يكون المربي الكبير الاستاذ جورج الكفوري على مقربة منه ، فيفور ويغلي كالمرجل ويهم بالقيام لاعطائه درساً في اللياقات الدبلوماسية ،ولكن احد ممثلي الدول العربية يهدىء من روعه قائلا:

— على رسلك يا ستاذ .. فان ما تسمعه من هذا الفرنسي طبيعي جداً .. فهو ولا ريب من تلك المدرسة الفرنسية الاستعمارية المتغطرسة التي ما تزال تحلم بالامبراطورية الفرنسية وممتلكات ما وراء البحار .. دعه يتأكل الغضب والحنق في صدره .. الا تراه .. انه يكاد يختنق من الغيظ ...

وكان موقف هذا الفرنسي الشاذ حديث السلك الدبلوماسي العربي والاجنبي يتندرون به طول النهار ..

وانتهت حفلة العرض فذهبت الى فندق « اوريان بالاس » حيث كان رجال الوفود العربية والوزراء السوريون يتبادلون التهاني بهذا اليوم العربي الاغر ..

وغادرت هذا الجو العابق بالعزة والكرامة وعدت الى بيروت وفي رأسي صورتان تتنازعان: صورة هذا الجندي الطفل يمثل سوريا الجديدة المتوثبة ، وصورة هذا الفرنسي يمثل العقلية الاستعمارية العتيقة ويعيش في احلام الامبراطورية ...

قناع واق ضد الحب

•

سأتحدث اليك اليوم ايها القارىء الكريم وانت ايتها القارئة الكريمة عـــن لون جـــديد من الوان الحب ، عثرت عليه مصادفة واتفاقاً في مطالعـاتي بينما كنت أعيد تلاوة بعض القصائد التي ترجع في عهدها الى عصر الجاهلية وصدر الاسلام اعيد تلاوتها كلما سنحت لي الفرص فاستمتع بها واجد فيها دائماً صوراً والواناً جديدة لا عهد لي بها من قبل فكأني أقرأها للمرة الاولى ...

قلت انه لون جديد بالنسبة الي لاني اهتديت اليه مجـدداً في مطالعاتي لا في واقع الحياة ولكنه قديم يعود الى بضعة عشر قرناً بل لعله اقدم من ذلك ولعله يرجع الى بدء الخليقة منذ خلق الله من العدم هذه المضغة الحساسة توزع الدم في الجسد بانتظام ، ندعوها قلباً ، وهي تعاني من سهام اللحظ غارات تنهكها وتحطمها تحطيما ، ومنذ خلق الله من العدم ايضاً هاتين الكوتين المريضتين الناعستين تطل منهما النفس على الكون وتصدر عنهما هـــذه السهام القاتلة

تخترق الصدر والشغاف وتصيب حبات القلوب ولا ترحم الا القلوب المتحجرة .. أي المضخات لا القلوب ..

هذا اللون الجديد الذي راحت ضحيته قلوب كثيرة ، لم اعثر عليه فيما قرأت من أنباء العشاق في الاداب الاجنبية ، فقد طالعت بشغف المقطعات الشعرية الرائعة التي نظمها شكسبير في وصف ما زخر به قلبا روميو وجولييت من هوى عاصف ، وانشدت قصائد بيرون الخـــالدة في الحب ، واعجبت بالهوى الصادق تدور عليه مآسي راسين و كورناي ، وقرأت من انباء العشاق المعاميد مأساة غادة الكاميليا ، وآلام فرتر ، وبول وفرجيني ، وفيهـا كلها هوى مبرح ووصف بـــديع لشباك الهوى تعلق بها ارواح المحبين ، وقرأت أيضاً انباء الهوى الافلاطوني والهوى الاباحي ، فلم أجد في ذلك كله اشارة الى هذا اللون الجـــديد الذي تفرد بالاشارة اليه بعض شعرائنا الاقدمين .

وقرأت كتاب اندريه موروا وعنوانه « وجوه الحب الخمسة » وهي دراسة وتحليل للحب يستعرض الكاتب الفرنسي الكبير فيه قصص الحب وابطال العشق في الاداب العالمية عبر العصور التاريخية ويتحدث عن وجوه الحب وهي خمسة في نظره ولعلها اكثر او أقل في نظر سواه ، ولكنه على كل حال لا يشير الى هـــذه الناحية الفريدة من الحب التي عثرت عليها في ادبنا العربي القديم ...

وقرأت في آدابنا العربية مصارع العشاق وانباء المجانين تيمهم الهوى العذري في قصائد مجنون ليلى و كثير عزة وجميل بثينة ، فلم أجد عند هؤلاء المجانين إشارة الى هـــذا اللون الذي اغفله العقلاء وقرأت ديوان امير الغزل في الشعر العربي ابن ابي ربيعة المخزومي القرشي فهو طـــافح بأساليب الحب واسراره وطرق تسربه الى القلوب ولكنه لم يشر فيما اعلم الى هذا اللون العجيب الذي احدثكم عنه هذه الليلة .

ولن انسى وانا استعرض انباء العشاق الاستطراد الى ذكر تلك المساجلة الطريفة ـ على سخافتها ـ التي تخيلها الراوية الاصمعي بينه وبين عاشق مجهول هده العشق اذ قرأ راويتنا الكبير عـــلى جدار قرب عين ماء هذا البيت :

ايا معشر العشاق بالله خـــبروا   اذا اشتد عشق بالفتى كيف يصنع ؟

فكتب الاصمعي تحته هذه النصيحة :

يداري هواه ثم يكتم سره   ويصبر في كل الامور ويخضع

وجاء الاصمعي في اليوم التالي فقرأ :

وان لم يجد صبراً لكتمان سره ؟

فكتب الاصمعي تحته :

فليس له شيء سوى الموت ينفع .

ومر الاصمعي في اليوم الثالث فاذا به يشاهد العاشق صريعاً الى

جانب الجدار وقد كتب البيت التالي :

سمعنا اطعنا ثم متنـــا فبلغوا سلامي الى من كان للوصل يمنع .

نعود الى اللون الجديد من الحب فقد عثرت عليه في بيت من أبيات عنترة العبسي في معلقته وعثرت عليه ايضاً في بيت من قصيدة جرير الغزلية التي تضم – فيما يقول النقاد الاقدمون – اغزل بيتين قالتهما العرب :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتـــلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انسانا

اما هذا اللون الجديد فهو « الحب عن عرض » وفيـــه يقول عنتره متحدثاً عن عبلته :

علقتها عرضاً ، وأقتـــل قومها زعماً لعمر أبيـك ليس بمزعم

وفيه يقول جرير مخاطباً أم عثمان ولست أدري – ولا كتب الادب تدري – من هي أم عثمان ولا من هو عثمان :

يا أم عثمان ، ان الحب عن عرض يصبي الحليم ويبكي العين احيانا

هذا الحب عن عرض أي عن غير قصد هو الحب المفاجيء الذي تنفذ سهامه الى القلوب وهي غير مستعدة لها .. فكأنهم ارادوا ان يقولوا بان المرء يستطيع – إذا شاء – أن يعد لنفسه العـدة إذا خرج بين الحسان فيتقي سهـــام اللحظ او يحتاط لامره منها فلا تفتك به ، ولكنه اذا أصابته هذه السهام على حين غرة وعـلى غير

سابق استعداد ، فانها تتمكن من قلبه وتصيب منه مقتلاً بل هي - كما يقول جرير - تصبي الحليم العاقل وتذكي فيه لواعج نيران كانت خامدة ، وتبكي عينه في بعض الاحيان ..

وقد حاول بعض النقاد الاقدمين ان يفسروا الحب عن عرض بالحب يعترضك في كل مكان ومن كل جانب فيسد عليك المسالك ، ولكن تفسيره بالمعنى المفاجىء المداهم أطرف وأصوب فيما نرى .

والحب عن عرض - كما لا يخفى - شر أنواع الحب وأفتكها وليس الخلاص منه بالامر الهين ، لان قوات المقاومة - وما أضعفها لدى القلوب المرهفة - لم تكن على استعداد لصد الغارة المفاجئة ، فتستسلم دونما مقاومة وتصبح ملكا حلالا للمغير يتصرف بها كيفما شاء ...

ولعل اجدادنا العرب أرادوا القول بان المرء يخرج من منزله ليعشق عامداً متعمداً فلا تؤثر فيه شباك الحب لانه قد اخذ أهبته للامر ، وقد يخرج لعمل آخر فيداهمه الحب من حيث لا يحتسب ، فيقع فريسة « للحب عن عرض » .

ولعل لهذا الحب المباغت الفتاك تعليلاً آخر ، فقد يخرج المرء وهو على أتم استعداد لاتقاء السهام ، ولكن قلبه المغلق الذي عجزت مفاتيح الهوى عن النفوذ اليه ، يتفتح فجأة وعلى حين غرة لنظرة من جفن ناعس مريض - فيخصب قلبه الماحل كما تخصب

النخلة تحمل الريح اليها اللقاح ..

واذا كان عنترة وجرير وغيرهما قد شكوا في القديم هذا الهوى المداهم يفتك بهم فما قولنا نحن في هذا العصر ، وقد أصبحت قلوبنا الضعيفة في غشاء من نبال ، فهذه السهام تطلقها العيون والجفون والشفاه من كل جانب ، في زحمة الشارع ، وفي قاعات السينما ، ومن شرفات المنازل وعبر زجاج السيارات الخاطفة ، وفي المتاجر وفي الدواوين ... وعلى شاطىء البحر وفوق سفوح الجبال .

السنا بحاجة الى أسباب للوقاية ؟. وهل تقوى قلوبنا المتفتحة الى الجمال على صد هذا السيل المنهمر من النبال المفوفة ؟

لقد اتخذوا أيام الحرب من الاقنعة الواقية وسيلة يتقي بها المرء شر الغازات السامة ...

فما أحوج قلوبنا إلى مثل هذه الاقنعة تتقي بها سهام اللحاظ وتدفع عنها غائلة الحب عن عرض ...

ولكن ... القناع لا يفيد فان للحاظ لقوة تخترق الحجب مهما كثفت وتنفذ الى حبات القلوب فتحرك فيها لاعج الهوى واذا كان شوقي قد دعا فيما مضى إلى الرفق بقلوب العذارى ، فالعذارى قلوبهن هواء ، فان من الواجب اليوم دعوة العذارى الى الرفق بالقلوب فانها لم تعد تتحمل ...

قلت القلوب فهي التي تحس وأما تلك التي لا تحس فانها

مضخات دموية لا اكثر .

وأما أصحاب هذه المضخات فقد فقدوا الحب وفقدوا معـــه الحياة ... فهم موتى وان كانوا في عداد الاحياء ...

مشروع الأشهر الخمسة ...

●

[يعود الزوج مساء الى منزله متعباً فتستقبله زوجته يحيط بها اولاده الخمسة و كبيرهم في الثانية عشرة ويدور بينهما الحوار التالي:]

الزوج – (يقبل زوجته واولاده) مساء الخير .. (مخاطباً اولاده) أراكم هنا ؟ اين دروسكم ؟ هل كتبتم وظائفكم ؟

الزوجة – اطمئن يا عزيزي ، لقد انجزوا مطالعة دروسهم تحت اشرافي ، وهم الآن بانتظارك للعشاء .. وقد أعددت المائدة .

الزوج – حسناً ، بارك الله بك ، لا تنسي ان سميراً (نجله الاكبر) سوف يتقدم الى امتحان الشهادة الابتدائية آخر السنة وأريد ان يكون – كأبيه – الاول بين جميع الطلاب المتقدمين..

الزوجة – وماذا أفادنا نبوغك وتفوقك على مقاعد الدراسة ، وانت موظف بسيط منسي في دوائر الحكومة ومرتبك الزهيد لا يسد نفقاتنا الضرورية .

الزوج – صحيح تذكرت ، نحن اليوم في اول الشهر ، وهذا

معاشي لقد قبضته ، خذيه واحتالي به على تسديد ديوننا .. ولست بحاجة الى توصيتك بالاقتصاد .

الزوجة — (تعد الاوراق النقدية فاذا هي ٢٥٠ ليرة) — اين الباقي ? هناك ٢٥ ليرة ناقصة ?.

الزوج — لا يستغني الرجل عن مثل هذا المبلغ يضعه في جيبه للمصاريف الخاصة والطارئة ..

الزوجة — (بكآبة وألم) وماذا تريد ان أصنع بهذا المبلغ ?. ٣٥ ليرة للحلاب .. و٤٥ ليرة للحام .. و٩٢ ليرة للخضري .. و٥٣ ليرة للبقال .. كم يبقى من المعاش ? خمس وعشرون ليرة ?. ندفعها مرتباً للخادمة عن الشهر الفائت .. ومن أين تدفع ثمن الاعاشة ? وقسط الكهرباء .. واجرة المنزل ? ثم هذه أحذية الاولاد، انها لم تعد تصلح لقد رقعها الاسكاف مراراً ولكنه أجابني اخيراً انه استنفد كل ما اوتي من فن فلم يعد بوسعه اصلاحها . ثم الا ترى ان مظهرك بين زملائك لم يعد لائقاً بهذه البذلة الكاحتة التي لا تعرف لها شكلا ولا لوناً?. وهل نسيت انك بحاجة الى معطف تتقي به برد الشتاء ... ثم نسيت ان علينا ديونا للطبيب والصيدلي ..

وهذا القسط الثاني عن الاولاد في المدرسة كيف تريد ان نسدده ?. لقد تلقيت الانذار الثاني والاخير من ناظر المدرسة فاذا

لم ندفع في هذا الاسبوع أعادوا لنا الاولاد الى البيت .. لقـــد احتلت على ملابسي وملابسك القديمة فحولتها بنفسي بذلات واثوابا وقمصاناً وسراويل للاولاد .. ولكن .. (وهنا القت نظرة سريعة على فستانها الرث وطفرت الدمعة من عينها) لقد قاطعت معارفي وانقطعت عن زياراتهم عاماً كاملا حتى لا أظهر امامهم بهذا المظهر الرث .. ولكن هذه الحالة لا يمكن ان تدوم .. (واجهشت للبكاء ثم بكت بمرارة ونشجت نشيجاً مؤلماً ، فأحاط بها اولادها يبكون لبكائها .. وينظرون شزراً الى ابيهم مصدر هذا الحزن ..)

الزوج ـ (يكفكف دمع زوجته ويجلسها الى جانبه ويبعد الاولاد الى حجرتهم) يا عزيزتي لم أشك يوماً بانك مثال الزوجـة الباسلة وانك نموذج حي صارخ للتضحية .. ولكن ما العمل يا عزيزتي يجب ان نحتال على هذه الظروف القاسية التي أوجدتها الحرب .. وقريباً تعود الامور الى نصابها الطبيعي فنعود الى سابق عهدنا من البحبوحه والرخاء .. لنقتصد يا عزيزتي في النفقـات فنأكل اللحم مرة واحدة في الاسبوع وكذلك الفاكهة ..

واما حاجتنا الى الملابس فنستطيع ان نسدها على طريقـــة الحكومات .. أي بالتقسيط .. فهنـاك مشروع السنوات الخمس تلجأ اليه الحكومة لتحقيق الاعمال العمرانية الجسيمة التي لا تقوى موازنتها على تحملها في عام واحد .. فلنطبق مشروع الاشهر الخمسة

لشراء بذلة لي وفستان لك . ومشروع الاشهر التسعة لدفع نفقات المدارس فأنا اتعهد للمدير بتقسيطها على دفعات شهرية .. وعندنا هـذه البيانو فلنبعها لتسديد هذه الديون بكاملها .. ونعود أنفسنا التقتير والقنـــاعة .. فالنفس طامعة اذا عودتها .. واذا ترد الى قليل تقنع ..

الزوجة – معذرة يا عزيزي فانا آسفة لاني استقبلتك بهذا المشهد المؤلم .. ولكن ثق انني انفجرت مرغمـة ولم يكن بوسعي كبت عواطفي ... ومما زاد أسفي اني ظهرت امام اولادي بهذا المظهر الكئيب فأطلعتهم على ناحية من حياتنا كنت أود ان تظل مكتومة عنهم فلا تنغص عليهم عيشهم .. ولكن .. دعنـــا من مشاريعك الوهمـيـة ، مشاريع الاشهر الخمسة والاشهر التسعة ، واجبني الست مع « فلان » موظفين في دائرة واحـــدة ؟... الست أعلى منه رتبة وراتباً ؟.

الزوج – طبعاً ..

الزوجة – قل لي اذاً كيف يستطيع اقتنـاء سيارة فاخرة ، وكيف يشتري لزوجته هذه الملابس الانيقة وهذا الفرو الثمين تتيه به زهواً في الصالونات . وكيف يرتاد اولاده أرقى المدارس ؟.. لقد سألتك مراراً هذا السؤال فكنت دائماً تجيبني جوابا لا يتغير : « مالنا وللناس ... »

الزوج – الحكاية واضحة يا عزيزتي فقـــد سمعت ما يلغط به الناس عن تواطؤ هذا الموظف مع رئيسه في الرشوة والارتكاب . والمؤلم ان الشائعة صحيحة .. وان معظم زملائي الموظفين في الدائرة نفسها شركاء في الجرم .. ولذلك أجد نفسي غريباً بينهم ولقد حاولوا بمختلف الوسائل اقناعي بالانضمام اليهم فأبيت .. فانا وانت يا عزيزتي قد شببنا على مبادىء لا نستطيع مفارقتها . وخير لنا ان نظل على حالنا من الضيق والتقتير من ان نمد يدنا الى المال الحرام .

الزوجة – فلسفتك هـــذه احفظها عن ظهر قلبي .. نسيت العشاء .. هيا يا عزيزي الى المائدة نأكل ما طهته « الفضيلة » من هزيل الطعام ...

الزوج – هيـــا يا حبيبتي .. تعالوا يا اولاد ، تعالوا ، كلوا ، واحمدوا الله انه يطعمكم رزقـكم حلالا .. واحمدوا الله ان أباكم ما يزال يجد لـكم اللقمة الحلال في خدمة هذه الدولة ...

كل شيء موجود ما عدا العدالة الاجتماعية ..

•

صعدت منذ ما يقرب من شهرين الى مصيفي في محطة بحمدون، اتفقده بعد انقطاعي عنه طوال فصلي الخريف والشتاء ، فاذا البيت ما يزال في مكانه - والحمد لله - ولكن البـــاب - وهو محصن كابواب القلاع في العصور الوسطى - محطم تحطيما فنياً . فقـــد دلف اللصوص الى المنزل وسلبوا منه ما خف حمله وغلا ثمنه ..

وقالت لي زوجتي بعد ان أحصت المتاع المسروق :

- لقد اخذ اللص أو اللصوص فراشاً ولحافاً ومخدتين وشرشفاً وأغطية اللحاف والمخدتين وستارتين وطاولة سكاير وبعض الصحون.

أجبتها ضاحكا :

- لا شك في أن هذا اللص منصف فقد كان بوسعه ان يسرق أمتعة أخرى ، ولا ريب في انه عريس ينوي الزواج بدليـل انه سرق رياش غرفة كاملة ..

فقالت بغضب :

– لا مجال للمزاح الآن .. يجب ان تذهب حالاً الى المخفر لترفع شكواك ..

ابتسمت واجبتها :

– لو لم يكن اللص بحاجة الى هذه الامتعة لما سرقها .. ولو كان لصاً محترفاً لسرق بقية الوسادات والملاحف والفرش وغير ذلك .. ثم يبدو لي ، يا عزيزتي ، اننا نستطيع الاستغناء عن هذه الامتعة فنحن لا نحتاجها في الشتاء ، ولدينا في بيروت ما ننام عليه ونلتحف به .. ألا ترين ان العدالة الاجتماعية لا تسمح بان يقتني احدنا عشرات الفرش واللحف .. بينما يتوسد كثيرون غيرنا الارض ويلتحفون السماء ..

– دعنا من فلسفتك الفارغة .. هيا الى المخفر .. واحضر لنا في طريقك نجاراً يصلح لنا الباب والاقفال .

وهنا وقبل أن اعالج هذا الموضوع الشائك عن العدالة الاجتماعية الذي اوحت به الى سرقة منزلي في بحمدون ، أود ان أصرح على رؤوس الملأ بانني لا أؤمن بالشيوعية ولا بالرأسمالية كما اني لا أبيح لبني وطني ان يستوردوا المباديء الوطنية والسياسية مع ما يستوردونه من الخارج من سلع ، بل اريد ان تكون آراؤنا ومذاهبنا وعقائدنا الوطنية والسياسية من نتاج فكرنا ، نستوحيها من بيئتنا ومصلحتنا فلا يجرفنا تيار النزعات العالمية المختلفة .. ولا

تكون حطباً يقذف به في اتون هـذا الصراع المخيف الذي يتألم منه العالم .

لندرس النظم الاجتماعية والاقتصادية في جميع اقطـــار الدنيا ولنضع نظمنا على ضوء هذا الدرس دون أن نتأثر سياسياً بالعوامل الخارجية ..

وأود كذلك أن أوضح بجـــلاء انني لا اؤمن بالثورات والانقلابات المفاجئـة بل اؤمن بالتطور البطيء التدريجي الثابت الشامل لجميع طبقات الشعب .

ان العدالة الاجتماعية الشاملة أمر وهمي لا وجود له في هـــذه الدنيا ، ولكننا نستطيع بقليل مـــن التضحية والتنظيم مكافحة الظلم الاجتماعي والاقتراب من هذه العدالة المنشودة، ولا ريب في ان أقطار العالم تتفاوت قرباً وبعداً من هذا المستوى بنسبة ما يتوفر لها من وعي شامل في مختلف الطبقات وتنظـــيم علمي فني لموارد الثروة فيها وكيفية انفاقها في المصالح العامة .

وعندي ان الأمة تقترب من العدالة الاجتماعية المنشودة اذا هي نجحت نجاحاً تاماً في مكافحة الادواء الثلاثة : المرض ، والجهل ، والجوع ...

ولو رحنا نستعرض الحالة العامة في شرقنا العربي لوجـدنا ان اتجاهاً عاماً نحو هذه المكافحة .. ولكنه اتجاه لا اكـثر ولا

اقل .. فالنية حسنة ولكن الجهود المبـذولة ما تزال ويا للاسف دون المستطاع ودون الحاجة المطلوبة الملحة ..

انا لا أطلب اعادة النظر في توزيـع الثروة والاراضي .. ولا أدعو الى تقييد الحريه الشخصية فيما يتعلق بالملكية وحرية العمـل والاستمتاع بالحياة .. فهذه كلها قيود وهمية — قد تفرضها القوة — ولكنها سرعان ما تزول بزوال هـذه القوة .. وغاية ما اطلبه هو أن نمحو من شرقنا العربي المرض والجهل والجوع ..

لن أنسى مشهد ذلك العامل المريض الذي رأيتـــه يوماً بين الانقاض في شارع المعرض وقـــد توسد الارض والتحف السماء وعصب رأسه بخرقة بالية وهو يسعل سعالا متواصلا ويبصق الدم والى جانبه جريدة وضع فوقها زجاجة العلاج وفنجانا محطم الاذن.. يتناول به الجرعات ..

سألته فقال :

— انا عامل شريف ولست متسولا كما قد يتراءى لك ولكن المرض اقعدني ومالي سوى الله ابثه شكواي وحزني ..

ترى من هو المسؤول عن هـذا المصدور البائس ؟.. ولماذا لا تتوفر له اسباب العنايه التي يتنعم بها المصدورون الاغنياء ؟ ..

المرض ديموقراطي يصيب الجميع على السواء ولا يرحم احداً.. ولكن العلاج ارستوقراطي في الشرق العربي فـــلا تنعم به إلا

الطبقة الميسورة ..

هذا مظهر للظلم الاجتماعي .. وعلاجه سهل اذا انشأت الدولة في كل حاضرة من حواضرها مراكز صحية مجانية يجد فيها المواطن الفقير نفس العناية التي يلقاها الغني في المستشفيات الخاصة .. فلا يموت المريض الفقير لانه فقير .. ولا يشفى المريض الغني لانه غني ..

وهذا المتسول أقعدته الشيخوخة أو العاهة أو شرده اليتم .. تراه يتسكع في شوارع بغداد والقاهرة ودمشق وبيروت يستدر شفقة السابلة .. أليس في وجهه صورة ناطقة للظلم الاجتماعي .. ولماذا لا تجمع الدولة هؤلاء في ملاجيء يعيشون فيها ويعملون ؟..

والجهل .. ماذا عملنا لمكافحته في الشرق العربي .. وهذه نسبة الامية ما تزال مرتفعة في معظم الاقطار العربية .. حتى ان لبنان وهو أقل الشعوب العربية أمية ، فيه حوالى ستين الف طفل في سن الدراسة ما يزالون خارج دور العلم ..

العلم ديموقراطي .. يستطيع ان يصل الى الجميع دون تفرقة ولكن المدرسة ارستوقراطية فهي غير متوفرة للجميع .

والعدل الاجتماعي يقضي بان يكون التعليم الابتدائي في كل قطر عربي الزامياً عاماً مجانياً للبنين والبنات يتساوى فيه الطفل الغني والطفل الفقير فلا يرتاد الفقير الكتاتيب الحقيرة لفقره ويرتاد الغنى المدارس النموذجية الراقية لغناه .. يجب ان تكون الفرصة

المتاحة لثقافة الطفل واحدة للاغنياء والفقراء على السواء فلا يهدر النبوغ وتضيع العبقريات ..

ويجب ان يجلس ابن الملك أو رئيس الجمهورية او بنتهما مع ابن الغسالة او ابنتها في مدرسة واحدة وعلى مقعد واحد .. فلا يفضل طفل طفلاً الا بما منحه الله من ذكاء وعبقرية .. وتكون الفرص المتاحة للاطفال واحدة ..

واما الجوع وهو ديموقراطي أيضاً يهاجم المعدة الفقيرة والغنية على السواء .. ولكن الغذاء ارستوقراطي .. لا يوزع على السواء بين الناس ..

وكذلك السكن .. أليس من حق الانسان ان يجد لنفسه في هذه الدنيا مسكناً نظيفاً صحياً يأوي اليه ؟.

زرت منذ أيام داراً عتيقة فيها ٢٦ غرفة تقطنها ٢٦ اسرة وتتألف كل اسرة من سبعة أو ثمانية اشخاص فكان المجموع ٢٠٠ شخص يعيشون معاً في حالة يرثى لها ..

أليس من العدل الاجتماعي ان تقام على حساب الدولة مدينة حديثة للعمال والمتوسطين في ضواحي العاصمة كما هي الحال في معظم الحواضر الاوروبية ؟.

وأين الاندية البريئة يأوي اليها العامل بعد فراغه من عمل النهار بدلا من ارتياده الحانات واماكن اللهو والفساد ؟ .

وأين الحمام الساخن يدلف اليه العامل الفقير مجاناً فيأخذ باسباب النظافة ولا ينتظر تسعة أشهر حتى يحل فصل الصيف فيغتسل في النهر أو البحر ؟...

هذه المشاريع الجليلة الخطيرة : مراكز صحية ومستشفيات حديثة مجانية وملاجيء للمقعدين والعجزة ، مدارس عامة مجانية راقية ، مساكن صحية للعمال والفقراء.. تخفيض تكاليف المعيشة ليتوفر للفقير والغني على السواء الغذاء الصحي الكامل . . هذه كلها امور تستطيع كل دولة من دولنا العربية تحقيقها لضمان العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات .. وتستطيع الحصول على المبالغ اللازمة من ضريبة الدخل – اذا جبيت بامانة فلم يخف المكلف حقيقة دخله – ومن ضريبة عادلة على الارث فلا تتجمع الثروات وتخزن في افراد معدودين .. ومن ضريبة جديدة تدعى ضريبة الضمان الاجتماعي .. على غرار نظام بيفردج أو سواه وهذه كلها شؤون يجب ان يتمرس بها الاختصاصيون بالقضايا المالية ..

ثم هناك ناحية هامة أود أن أختم بها حديثي .. فالدولة في بلاد الناس لا تقوم بكل شيء ولا ينتظر منها كل شيء.. بل هناك الجمعيات الاهلية المختلفة التي تساهم في هذا المضمار مساهمة فعالة وتحمل عن الدولة عبئاً كبيراً.. فالتعليم في اميركا مثلا يكاديكون أهليا تضطلع به الجماعات لا الحكومة .. وكذلك اعمال الأسعاف

والصحة . فان معظم المستشفيات الاميركية تقوم على سواعد المحسنين من كبار الاغنياء لذلك يحسن بنا في شرقنا العربي أن نعطف على قيام جمعيات من هذا القبيل وان نساهم - كل حسب طاقته - في اعمالها الخيرية الانسانية ..

وأخيراً انك تجد عند كثيرين منا فائضاً عن حاجتهم .. هذا الفائض لا يجوز كنزه .. بل ينبغي لنا ان نجود به عن طيبة خاطر للمحتاجين والمحرومين .. فما نقص مال من صدقة .. واود ان اهمس في اذن الاغنياء والموسرين بان الجود الطوعي بهذا الفائض هو الوسيلة الوحيدة لبقاء ثرواتهم ..

قيدوا الحريـــة !..

●

زرت منذ أسابيع مزرعة للفاكهة على مقربة من عاليـه تدعى مزرعة المستر تشرشل فقد انشأها - فيما يقول المؤرخون المعاصرون - عمّ المستر تشرشل الرئيس البريطاني السابق في النصف الثاني من القرن الماضي ، وكان يطلق عليـــه اللبنانيون اسم شرشل بك ، واتيح لي ان أزور جسراً قديماً اقامه المستر تشرشل بـين طرفي الوادي وقرأت عليه ابياتاً من الشعر تؤرخ بناءه :

لقد انشاه شرشل بك جسراً تجوز الناس فيـه بالاماني .
شرى هذا المكان وكان ارضاً معطلة فصار من الجنـان

وقد نقش تحت البيتين تاريخ البناء وهو ١٨٧٨ م ويبدو من هذا الشعر ان الوادي كان قفراً فغرس فيه شرشل بك الفاكهـة منذ ٧٠ عاماً .

طاف بي صاحب هذه المزرعة ، وهو لبناني يود ان يجعل منهـا نموذجاً حياً للزراعة الحديثة ، بين اشجار الفاكهـة العامرة بالتفاح

والاجاص على اختلاف انواعها واخذ يشرح لي الاساليب الجديدة التي يلجأ اليها في مكافحة الحشرات ثم هز رأسه بمرارة واسف وقال:

– ما الفائدة يا صديقي من هذه الجهود نبذلها في مكافحة الحشرات ما دام جيراننا لا يكافحونها في مزارعهم .. ان الريح تنقل الي مختلف انواع هذه الحشرات من الجوار فتذهب جهودنا هباء منثوراً .

واذكر حديثاً جرى بيني وبين مزارع سوري كبير يوم تفشت حشرة « السونة » في القرى السورية تلتهم الموسم ، اذ سألته عما اذا كان قد كافحها في قراه فاجابني متألما :

– ما الفائدة يا عزيزي من المكافحة اذا لم تكن عامة ، لقد عملت اياما مع مئات الفلاحين في مكافحة السونة في احدى القرى حتى لم يبق لها اثر فاستبشرنا خيراً ، ولكن .. هبت الريح ذات يوم واذا باسراب السونة تهب من القرى المجاورة وتجتاح قريتنا فلا تبقى فيها ولا تذر ..

هاتان الحادثتان مزرعة عاليه ، وحادثة « السونة » ، ظلتا عالقتين بذهني ، وكنت كلما فكرت فيهما تكشفت لي حقيقة مؤلمة ، نحن ، في شرقنا العربي ، في أشد الحاجة الى معالجتها ، ذلك اننا لا نقدر قيمة التعاون والعمل المشترك ، حق قدرها ، ونفهم الحريه الشخصية فهما خاطئاً ويا للاسف ..

انا لا انكر على المزارعين المجاورين لمزرعة تشرشل حقهم في غرس مزارعهم كيفما شاءوا ، ولا انكر على الفلاحين السوريين حقهم في زرع قراهم باي صنف الحبوب ، فهم احرار يتصرفون باراضيهم كما يشاؤون يزرعونها على النحو الذي يريدون ، وحريتهم هذه مقدسة لا ينازعهم فيها احد ، ولكنها ليست مطلقة بل هي مقيدة بقيد واحد لا يجوز التساهل فيه وهو مراعاة المصلحة العامة المشتركة ، فلا يسيء احد منهم بتصرفاته الى جاره . ومتى قيدت الحرية الشخصية بقيد المصلحة العامة المشتركة كانت هي الحرية المثلى التي ينشدها الناس ..

كانت الحرية قبل الحرب الكبرى الاخيرة واحدة فجاء المرحوم الرئيس روزفلت وجعلها حريات اربعا : حرية الرأي وحرية المعتقد والتحرر من المرض والتحرر من العوز .. ولكن هذه الحريات ـ اربعا كانت أم واحدة ـ خطرة على المجتمع اذا لم تقيد بقيد المصلحة العامة المشتركة .. ومتى توفر لها هذا القيد أصبح عندئذ المجال فسيحا للتعاون والتآزر بين ابناء البلد الواحد من جهة ، وبين هذا البلد وبين سائر الاقطار من جهة أخرى ..

ولعمري ، لقد ادرك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منذ زهاء اربعة عشر قرنا هذه الحقيقة ـ التي ندعو اليها اليوم ـ إذ ضرب لاصحابه مثل السفينة للتدليل على فساد الحرية الشخصية التي لا

يقيدها قيد المصلحة العامة المشتركة .

قال صلى الله عليه وسلم :

« ان قوما ركبوا في سفينة فاقتسموا فصار لكل رجل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له : ما تصنع ؟ قال هو مكاني اصنع فيه ما اشاء . فان اخذوا على يده نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا .. »

بين الزهاوي والرصافي

•

لئن صح ما يروى عن المعلم الاول ارسطو انه حمد الآلهة عـلى ثلاثة اشياء : انها خلقته رجلا لا امرأة ، حراً لا عبداً ، وانه عاش في زمن الاسكندر الكبير، فلا شك في انني احمد الله تعالى – بعد حمده على نعمة الاستقلال وراشيا وبشامون !..—على انـه خلقني في عصر زاهر من عصور الادب العربي فعرفت شوقي وحافظ والمطران والرصافي والزهاوي والريحاني والفاخوري والاخطــل الصغير والحكيم وطه حسين وغيرهم من اعلام الشعر والنثر في دنيا العرب الذين لم يحفل بمثلهم عصر من عصورنا الزاهية منذ ايامنــا الغر في دمشق وبغداد وحلب و « زمان الوصل بالاندلس... »

هي حقبة قصيرة من حقبات الادب ازدهرت فيها دولة الشعر وسما فيها مستوى القريض ، لا بل حلق – عقب ركود الف عام – تحليقاً في أجواء الفن الرفيع جعلنا نستبشر بان تعود للشعر العربي مكانته العالمية في دنيا الأدب .

وكان لهذه السوق الشعرية الجديدة رواج عظيم في حاضرتين من حواضر العرب : القاهرة وبغداد . فاما في القاهرة فقد كانت المنافسة – بل سمها الخصومة إذا شئت – أول الأمر شديدة بين شوقي وحافظ والمطران ولكنهم تهادنوا وتوزعوا فيما بينهم الألقاب فكان شوقي شاعر الخديوي يرفل في حلل النعيم ويحظى بعطف الاسرة العلوية ورعايتها ، وكان حافظ شاعر النيل لا يفيد من فيضه سوى البؤس والشقاء ، وكان المطران شاعر القطرين مصر والشام ، – ولعله كان يكتفي بعزبة أو بفدان واحد – وظلوا كذلك إلى أن أقيم المهرجان الكبير لشوقي ، فعقدت له الأمارة وبايعه بها شعراء الاقطار العربية فكان رحمه الله أول شاعر في تاريخ الأدب العربي ينعم بهذا اللقب يغدق عليه باجماع شعراء عصره ، وفي هذا المهرجان دفنت الخصومة بين شوقي وحافظ إلى الأبد حين أنشد شاعر النيل :

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً   وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

واختطفت المنون أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في عام واحد ولم يبق في هذا المثلث العظيم سوى الخليل – حرسه الله – الذي أصبح بعد ولادة الجامعة العربية بحق شاعر الاقطار العربية .

وأما في بغداد فالمعركة كانت أشد هولا بين أميرين من أمراء الشعر الحديث : الزهاوي وتلميذه – في طلب العلم لا في الطريقة

الشعرية – معروف الرصافي . وقد أتيح لي أن أحضر عام ١٩٢٥ جانباً من هذه المعركة التي انقسم فيها البغداديون ثلاثة أقسام: قسماً يناصر الزهاوي علانية وقسما آخر يناصر الرصافي علانيـــة أيضاً ، وثالثاً يود أن يحتفظ بصداقة الشاعرين فكان يلعب على الحبلين ويسر في أذن الزهاوي أنه شاعر العراق وللرصافي أنه معـــه ، ويحضر مجالس الاثنين ، وكنت في عداد هذه الزمرة الاخيرة – فليس لي في هذا النزاع ناقة ولا جمل .

وكانت الخصومة شديدة لا هوادة فيها بين الشاعرين حتى أنهما أصبحا لا يجتمعان في مجلس واحد ، فاذا دعي أحدهما إلى حفـــلة كبرى سأل منظميها ما إذا كان خصمه سوف يحضرها ، فاذا ثبت له أنه وحده مدعو اليها ذهب، وإلا اعتذر ...

ولست أنسى كيف نظم الطلبة الخبثاء في المدرسة الثـــانوية حفلة خطابية دعوا اليها الشاعرين معـاً بعد أن أكدوا لكل منهما أن زميله غير مدعو... ووقعت الكارثة وحضر الشاعران وجلسا في الصف الامامي ظهراً لظهر... – بعد أن أشاح كل منهما بوجهه– وكان في المنهاج أن يقول كل منهما قصيدة – ويبدو أن الزهاوي كان يعلم أن الرصافي سوف يحضر– وكان دور الزهاوي في الكلام قبل الرصافي فوقف وأنشد قصيدة دالية من شعره الجيد حتى وصل إلى بيت القصيد فالتفت نحو الرصافي وأنشد :

وللشعر في بغداد روح جديدة   وللشعر أعباء أقوم بها وحدي..

ولفظ الزهاوي كلمة «وحدي» مفخمة طويلة ويداه ترتجفان وتشيران إلى الرصافي الذي نهض من مقعده غاضباً وغادر الحفلة وهو يرغي ويزبد... والحضور يصفقون ورافقه أنصاره وانفضت الحفلة على غير ما يرام.

هذه الصورة تمثل شدة الخصومة بين شاعرين عظيمين ألهبا سماء العراق وطنية وألهبا صدور فتيانها بالثورة على الظلم والاستعمار فبذرا بذور النهضة القومية على ضفاف الرافدين كما هزا صروح الباطل في لبنان والشام ومصر وفي كل قطر عربي.

وكان من الذين حملوا لواء الزهاوي عالياً الأديب المعروف الاستاذ احمد حامد الصراف وكان يتفنن في أساليب الدعاية للشاعر الفيلسوف وله في ذلك مواقف ما يزال البغداديون يذكرونها ويتندرون بها.

وقد اجتمعت إلى الزهاوي في قصره بعد أن أهدى إلي ديوانه. سمعته يروي نظريته الغامضة في الذرة ولعله كان يشرح لي نظرية الطاقة الذرية ولكنني لم أفهمها... وسمعته يقص علي أن المصريين يرددون شعره في حافلات الترام فقد سمع أحد الركاب يقول لرفيقه في ترام القاهرة:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه   فليس خليقاً أن يقال له شعرا...

فيلتفت الزهاوي إلى هذا المصري ويجيبه ويقول : أحسنت يا بني هذا هو الشعر الحقيقي .

ويختتم الزهاوي حديثه معي قائلا :

الشعر هو الذي يسير على السنة الناس في كل مكان وزمان وأين شعر «معروف» من هذا الشعر الخالد ؟

وكنت قد قرأت بعض رباعياته فنظمت رباعيات على غرارها ونشرتها في جريدة «العراق» منتحلا توقيع الزهاوي فلم ينكرها رحمه الله وتبناها .. وما أزال أذكر من هذا الشعر المنتحل بيتين ، وهما : هذا الفضاء مدار   فيه تدور النجوم

إن القديم جديد   إن الجديد قديم ..

وأما الرصافي فكان يرى ، رحمه الله ، أن منابع الشعر عند الزهاوي جافة لأنه لا يقبل على ملذات الدنيا .. والرصافي أبيقوري النزعة ، والشعر عنده يجب أن يستلهم من الحياة الصاخبة المرحة لا من الصوامع ..

وأعجب ما في هذه الخصومة المستعرة بين الشاعرين أن كلا منهما كان يرى نفسه مضطهداً في قومه فالزهاوي يقول :

لولا تفاقم شر ليس يحتمل   ما كنت عن وطني بغداد ارتحل

والرصافي يقول :

اليك اليك يا بغداد عني   فاني لست منك ولست مني

ولكن هذا الاضطهاد المشترك لم يجمع بينهما... فظلا لا يجتمع احدهما بالآخر وغادرا هذه الدنيا الفانية وهما على خصام .

لقد طوى الموت هذه الخصومة الأدبية إلى الأبد ولكنها كانت مبعثاً للنهضة الشعرية في العراق فاوقدت فيه نار الشعر بعد ان خبت الف عام كما اشعلت جذوة الوطنية .

بوسعي أن أنسى كل شيء .. ما عدا قصيدة الزهاوي قبيل معركة «الرميثة» يوم انتصر المجاهدون العراقيون على جيوش الاحتلال البريطانية وبدأ العراق يخط صفحة استقلاله الوضاءة ...

رسالة لبنان في الأدب

●

هناك حقيقة لا بد من الاشارة اليها والاشادة بها في مطلع هذه المحاضرة، حقيقة تكاد تكون من البديهيات في دنيا الآداب الحديثة، ولكن لا بد من التنويه بها لعلاقتها الوثيقة بموضوع حديثنا هذه الليلة : رسالة لبنان في الأدب العربي الحديث .

هذة الحقيقة هي ان الأدب الحق لا يعرف الحدود والاوطان والجنسيات والاديان ، وما تواضع عليه البشر من مصطلحات وهمية للتفرقة بين سكان هذا الكوكب الجميل ، وان رسالة الأدب التي تنشد الخير والحق والجمال ، تخترق هذه الحجب الكثيفة، يحاول الناس – ظلماً وعدواناً – اسدالها حولهم ، وهذه الجدران الفولاذية يقيمونها بينهم وبين جيرانهم ، وتنفذ الى العقول أينما كانت فتكشف عنها عمايات الاوهام والتقاليد ، والى القلوب فتنيرها بالحب والخير والجمال .

الا ترون اننا – هنا في لبنان مثلاً – نقرأ روائع الأدب

الغربي القديم والحديث في مختلف اللغات فنكبر ما فيها من روعة وجلال واهداف انسانية نبيلة ، دون ان يكون لجنسية كاتبها أي أثر في هذا التقدير والاعجاب .

هذه الصبغة الانسانية الشاملة للادب التي تتضاءل ازاءها العنصريات والنزعات الاقليمية الفانية هي المقياس الصحيح للقيم الادبية في القرن العشرين .

واذا كان بسمارك قد رفض في اثناء الحرب السبعينية بين المانيا وفرنسا مقاطعة الخمرة الفرنسية لانها فرنسية قائلا قوله المأثور : « المعدة لا وطن ولا دين لها » - والخمرة والمعدة شيئان ماديان حقيران - فان معدة الاديب الروحية - إذا جاز هذا الاصطلاح - تستسيغ الغذاء الادبي لا يهمها مصدره ولا لونه ولا قائله ، وأن الاديب الحق ليشعر بالرابطة الادبية الوثيقة تشده إلى أدباء الدنيا قاطبة أينما كانوا ومهما تكن الجنسية التي ينتمون اليها ..

هذا هو المقياس الحديث ، المقياس الصحيح للادب وانه لمن الحق أن نشير إلى أن شاعرنا العظيم أبا تمام قد دعا إلى هذه الرابطة منذ أكثر من الف عام أي قبل أن يكتب الاوروبيون أدبا بلغاتهم الحية - أي قبل نشوء الفرنسية والالمانية والانكليزية - فقال متحدثاً بلسان الدهر :

ان يختلف ماء الحياة فماؤنا   عذب تحدر من غمام واحد

أو يختلف نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد ! .

هذا هو مقياسنا في التحدث عن رسالة لبنان في الادب العربي الحديث ، فنحن منذ البدء نصرح باننا لا نعترف بالنزعات الاقليمية الضيقة ولا نشاطر دعاة العزلة والانكماش مذهبهم في « الفكر اللبناني » و « الادب اللبناني » ونعتبر الفكر ملكاً للانسانية منزهاً عن قيود الوهم والباطل ، ونعتبر الادب مشاعاً بين الامم ، يكاد يؤلف لولا تنوع أساليب التعبير ، وحدة متماسكة الاجزاء ... فالادب العربي الذي تنتظم درره تحت ظلال الارز او على ضفاف دجلة او بردى او في وادي النيل أو في إحدى واحات الصحراء العربية النائية إنما هو نتاج الامة العربية، ونتاج الانسانية في الوقت نفسه . فمتى كان الادب الصادر عن برناردشو الارلندي المولد والاصل خاصاً بايرلندا دون سائر الشعوب الانكليزية او دون سائر شعوب العالم ، ومتى كان الادب الصادر عن أديب سوفياتي في مقاطعة جورجيا خاصاً بهذه المقاطعة دون سواها من جمهوريات الاتحاد السوفياتي أو من امم الارض ...

ونحن إذ ننظر إلى الادب هذه النظرة الشاملة لا نود ان نبخس الطابع المحلي او اللون الاقليمي قدره وخطره ، فالاديب يتأثر ببيئته ويستمد منها عناصر لها قيمتها ولها وزنها في تكوين ادبه ، ولكننا لا نود ان يتخذ هذا اللون او هذا الطابع ذريعة لتقوية

الاقليمية والعنصرية في دنيا الأدب .

الجمال والخير أثمن ما في هذه الدنيا – إذا كان في الدنيا سوق رائجة للقيم الروحية – وهما وقف على البشر يجدونهما بمظاهرهما المتنوعة في رمال الصحراء وعلى ضفاف الجداول والانهار وفي سفوح الجبال ، وفي المدن والقرى ، وفي مختلف فصول السنة ، وفصول الحياة ، يبلى الزمان ولا يبليان . وهما ملك الاديب ينهل من معينهما روائع فنه وادبه .

نسيت اسم ذلك الاديب الفرنسي – ولعله لوتي او دوديه – الذي كان يتنزه يوماً مع ابنته فوق رابية والشمس تغيب وراء الافق في البحر فسألته الصغيرة وقد خلبها جمال الطبيعة :

– لمن هذه الجبال والوديان والغابات ؟

فاجابها :

– لنا يا حبيبتي ..

– وهذه الشمس الحمراء وهذا البحر الازرق ؟..

– هما لنا يا عزيزتي ...

وفي طريقهما الى المنزل مرت بهما مركبة فاخرة تجرها جياد مطهمة فسألت البنت أباها :

– وهذه المركبة يا أبي ؟

– لا يا ابنتي هذه ليست لنا ...

ولعلنا لا نعدو الحقيقة حين نشبه الأدب بالدين ، فالدين في الاساس لا يعرف الاوطان والحدود وانما هو ملك الانسانيه جمعاء ولقد شقي الناس حقبة طويلة من الزمن حين أخطأوا فهم حقيقة الاديان فراحوا يغذون الاقليمية على حساب الدين والدين براء منها ، ونحن لا نريد ان نزري بالادب فنجعله سبباً من أسباب الخصومة والتفرقة ، وحسبنا ما يعانيه العالم من طغيان المادة على الروح ...

لكل قطر رسالة ادبية ينبغي له أن يؤديها اذا شا. ان يساهم في ركب الحضارة الانسانية ، وقد تكون هذه الرسالة خاصة به وقد يشاركه فيها غيره من الاقطار .

وان للبنان رسالة خاصة في الادب على وجه العموم ، وفي الأدب العربي الحديث على وجه الخصوص ، اشتركت في تكوينها العوامل التالية :

كان لبنان وسوريا منذ أقدم العصور حتى اليوم الجسر الذي مرت عليه قوافل الحضارات الانسانية من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ومن الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، فليس في الدنيا بقعة كهذه البقعة عرفت هذا النوع العجيب من الثقافات . ويعود السبب في ذلك كله إلى المركز الجغرافي الممتاز الذي ينعم به هذان البلدان فهما الجسر الذي يربط بين ثلاث

قارات وهما كما يردد الكتاب والمفكرون في كل مناسبة ، همزة الوصل بين الشرق والغرب .

ولم يكن تقدم أسباب المواصلات إلا ليزيد هذين البلدين أهمية فهما اليوم العقدة التي تلتقي فيها شبكات المواصلات الجوية والبحرية والبرية .

وقد حبت الطبيعة لبناننا بجمال ساحر يتجدد في مختلف الفصول ويجمع بينها في وقت واحد ، وحبته بمناخ ممتاز متنوع جعله مركزاً صحياً مرموقاً لاقطار الشرق الاوسط وقبلة انظار المصطافين والمشتين ، وفيه وحوله الاثار التاريخية ما يجذب اليه السياح من مختلف الاقطار الغربية والشرقية . وهو بالاضافة إلى ذلك كله مركز إقتصادي متوسط عظيم يؤمه رجال الاعمال من الشرق والغرب للعمل وللراحة ، كل هذا جعل من لبنان ملتقى النخبة الممتازة من رجال الشرق والغرب .

وللبنان في دنيا الثقافة مكانة مرموقة فقد أقبل ابناؤه في العصور الحديثة ، قبل اخوانهم من ابناء الاقطار المجاورة ، على الاخذ بأسباب الثقافة ، واحتكوا بالحضارة الغربية واقتبسوا عنها الشيء الكثير . وكان لبنان ميداناً خصيبا لنشر الثقافات الاجنبية فكثرت فيه معاهد العلم الغربية تحمل الى اللبنانيين صوراً متنوعة من تلك الثقافات وتطبعهم بطابعها . وليس في الاقطار العربية

قطر كلبنان توفرت فيه اسباب العلم فهو على الرغم من صغر مساحته وقلة عدد سكانه يضم جامعتين اجنبيتين وعدداً كبيراً من الكليات الوطنية والاجنبية والمدارس الابتدائية ، فلا غرو إذا كانت نسبة المتعلمين في لبنان أرقى منها في أي قطر عربي آخر ، ولا غرو اذا كان الشباب المثقف اللبناني يحذق بالاضافة إلى اللغة العربية لغتين اجنبيتين ، ولا غرو إذا كان اللبنانيون على اتصال دائم بالحركة الادبية في أميركا واوربا، ولا غرو إذا كان اللبناني المتوسط يطالع باستمرار بالاضافة إلى الكتب والمجلات العربية طائفة مختارة من الكتب والمجلات الادبية بالفرنسية والانكليزية .. ويندر ان تجد بين اللبنانيين المثقفين من يكتفي بمطالعاته العربية .

ثم ان نسبة اصحاب الثقافة العالية في لبنان أرقى منها في أي قطر آخر يؤيد ذلك هذا العدد الوفير من الاطباء والمحامين والمهندسين والادباء الذين ضاقت بهم رقعة وطنهم الصغير فهاجروا إلى الاقطار الشقيقة او إلى الاميركيتين ..

ونجد لزاماً علينا في معرض الكلام عن مكانة لبنان الثقافية ان نذكر بالخير شطرنا المغترب ، اولئك المهاجرين الاشاوس الذين حملوا معهم الى الاميركيتين ثقافتهم العربية فلقحت بالثقافة الاميركية الشمالية او الجنوبية فتولد من هذا اللقاح أدب عجيب، فيه رونق الديباجة العربية ، وفيه طابع الثقافة الاميركية وما

تمتاز به من تحرر وانطلاق ونزعـــة عملية .. وحسبنا ان نذكر المرحومين امين الريحاني وفوزي المعلوف والادباء ايليا ابو ماضي والشاعر القروي وميخائيل نعيمه للتدليل على هذه النفحة الجديدة التي يعبق بها ادب المهجر .

وهناك عامل تاريخي يساهم في تكوين هذه الرسالة ، فقد حمـل لبنان مشعل النهضة الادبية في دنيا العرب منذ اكثر مـن مائة عام ، وعلى ذروات هذا الجبل وفي سفوحه ووديانه وعلى ساحـله الافيح نشأ البستانيون واليازجيون والشدياق والاسير والاحدب وصروف ونمر وزيدان وتقلا والشرتوني وغيرهم كثيرون ، وبذروا بذور النهضة في لبنان وسائر الاقطار العربية وها نحن نجني اليوم من غرسهم أينع الاثمار . فليس عجباً إذن ان يتابع اللبنانيون فى القرن العشرين اداء الرسالة التي اضطلع بهـــا آباؤهم في القرن التاسع عشر ..

ولقد مر على لبنان حين من الدهر – خمسة وعشرون عاماً – فترت فيه هذه النهضة الادبية فحملت الشقيقة الكبرى مصر اللواء وقطعت به شوطاً بعيداً ، أجل ، ربع قرن من الانتداب ضعفت فيه اللغة العربية وعزف اكثر ابنائنا عن دراستها وانصرفوا الى حذق لغة المستعمر ، فكادت هذه الجذوة المستعرة تنطفىء في لبنان ، ولكن الله يأبى الا ان يتم نوره ، فتحرر لبنان من قيود السياسة

والثقافة، واصبحت العربية وحدها لغة الدولة واعطيت المكانة اللائقة بها في المناهج فعاد القطيع الشارد الى الحظيرة وحق لنا ان نستبشر بطلائع عهد جديد يعود فيه للعربية في لبنان سابق عهدها، عهد « العرف الطيب » لليازجي وعهد « المحيط » و « الجنان » للبستاني .. ذلك العهد الزاهر الذي يذكره طلاب الادب دائماً وأبداً بالخير ويحنون اليه ..

هذه العوامل الثلاثة: العامل الجغرافي والعامل الثقافي والعامل التاريخي، ساهمت في تكوين رسالة لبنان الادبية وهي رسالة مزدوجة : داخلية تتجه نحو العالم العربي وخارجية تتجه شطر الآداب العالمية .

وتقوم هذه الرسالة المزدوجة على قاعدتين رئيسيتين :

الاولى : النقل، والثانية : الصهر والانتاج ..

وانه لمن الصعب ان نفاضل بين هاتين القاعدتين فلكل منهما أهميتها وخطورتها بل تكاد احداهما تتمم الاخرى .

اما النقل فهو ترجمة روائع الادب الاجنبي القديم بامانة ودقة الى العربية، وترجمة روائع الادب العربي القديم والحديث الى اللغات الاجنبية . وهذه مهمة شاقة ولكنها متوفرة في لبنان اكثر منها في أي قطر عربي آخر نظراً لتعمق ادبائه على وجه العموم في الآداب الاجنبية ومتابعتهم لها وتمكن بعضهم من اللغات

الاجنبية والعربية في وقت واحـــد . وليس يعوزهم النشاط ولا الدأب على هذا العمل الشاق بقدر ما تعوزهم اسباب الطباعة والنشر

وانه لمن الظلم والاجحاف ان نقلل من شأن هذه الرسالة وان نصمها بالآلية والبعد عن الابتكار والابداع الا اذا كنا نعتبر عمل الاساتذة والكليات – وهـو نقل التراث الفكري الانساني من جيل الى جيل – جهداً آلياً لا شأن له في سير الحضارة الانسانية .

لا بدّ للامم في بدء نهضتها من الاستعانة بالترجمة ولو رجعنا الى النهضة العلميـة والادبية في العصر الذهبي العربي لوجدنا اساسها في اعمال التراجمة الذين نقلوا الى العربية كنوز اليونان والفرس .

أجل أيها السادة انه عـــار علينا ، معشر العرب ، ان يترجم اجدادنا عيون الاسفار اليونانية والفارسية وتظل المكتبة العربيـة الحديثة خلواً من مجموعات كاملة لروائع الادباء الانكليز والاميركان والفرنسيين والطليان والروس والالمان القديمة والحديثة في حين انها كلها مترجمة الى كافة اللغات الاجنبية ما عدا العربية !..

وانه لمن العار ايضاً ان تظل كنوزنا الادبية العربية دفينة فلا يطلع عليها ادباء الغرب لو لا بعض المحاولات التي قام بهـا فريق من المستشرقين ، فيخيل الى عالم الغرب ان العرب لم ينتجوا أدباً بالمعنى الصحيح في حين اننا وضعنا منذ الف عـــام أول موسوعة ادبية في الدنيا ، في كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني .

هذه الرسالة : رسالة النقل والترجمة يستطيع لبنان ان يساهم فيها الى حد بعيـــد فيتعاون مع شقيقاته العربيات ولا سيما مصر وسوريا والعراق ويسدي الى الادب العربي والى الآداب العالمية خدمات جلى .

وأما القاعدة الثانية التي تقوم عليها رسالة لبنان الادبية فهي الصهر والانتاج ، لا التقليد والاخراج . فلبنان كما بينا آنفاً بقعة عجيبة تلتقي فيها الثقافات على اختلاف أنواعها وألوانها، واللبنانيون يقبلون على الاغتراف منها بنهم منقطع النظير، فتجد الشباب اللبناني المتأدب يعرف عن بودلير وفاليري ومدرستهما الشعرية مثلاً ما لا يعرف الا كبار الادباء في الاقطار العربية المجاورة ، وتراه ملمـاً الماماً عجيباً بالحركات الادبية في مختلف الاقطار الغربيـــة وبسائر تطوراتها بانتظام وتجد عنده ذوقاً أدبياً وحساً فنياً مرهفاً لا يتوفر لمن كانوا في مستواه من اخوانه العرب في الاقطـــار الأخرى . ولكنه بالمقابلة قليل الاطلاع على تراثه الادبي العربي قليل الالمام بالاساليب الكتابية العربية — إلا نخبة ممتازة نجلها ونحترمها .

وتلمس عند هذا الشباب اللبناني رغبة صادقـــة في النهوض بالادب العربي الى مستوى الاداب العالمية فلا يجد منفـذاً لتحقيق هذه الرغبة سوى التقليد فاذا قرأ مثلاً شعراً رمزياً أجنبياً فاعجبه ، حاول ان يأتي بمثله في العربية فيطلع علينا بشعر لا هو عربي ولا

هو اجنبي ، بل هو بين بين .. قد يكون المعنى جيداً فلا يجد له القالب العربي الملائم فتشعر وانت تقرأ هـذا الشعر انك تقرأ شعراً اجنبياً بالفاظ عربية ..

وسبب ذلك ان شبابنا لم يتزودوا بالقدر الكافي من أساليب العرب فلم تتكون لديهم ملكة اللغة ، وغرفوا ما غرفوه من أدب الغرب فلم ينصهر في نفوسهم ولم ينضجوه على مهل ولم تتمثله عقولهم فتستسيغه ويندمج بها فيصبح جزءاً منها ، بـل لفظوه كما تلقفوه فكراً أجنبياً واضح العجمة في قالب عربي أبعد ما يكون عن البلاغة والبيان !

لست أدري لماذا أتخيل كلما فكرت في هذه الناحية من ادبنا — تلك الاريكة الدمشقية وذينك المقعدين الاميركيين على مقربة منها ، في بهو احد اصدقائي البيروتيين فالاريكة الدمشقية تحتفظ برونقها في قاعة شرقية تزينها النقوش والفسيفساء والرخام المضلع. والمقعدان الاميركيان يبدو جمالهما في صالة عصرية تحيط بهما الرياش الحديثة .. ولكنهما كما رأيتهما في بهو صديقي غريبان ازاء هـذه الاريكة الدمشقية ، كامرىء القيس وجارته أمام جبل عسيب ...

فاذا كان اقبالنا على الاداب الاجنبية سوف ينتهي بنـا إلى انتاج صور أدبية من هذا الطراز فانه من الخير لنا وللادب ان نظل في نجوة عن هذا الاقتباس .

ولكن الذي نهدف اليه أعمق من هذا الخليط المتنافر . فنحن ننشد لقاح آدابنا العربية المتينة بالآداب الاجنبية عن طريق التفاعل الكيماوي القائم على الصهر والاندماج وفناء الواحدة في الأخرى ، على لغة المتصوفة ، لا الجمع والتركيب .

ورسالة لبنان الادبية يجب ان تقوم على هذا الأساس فتصهر هذه الآداب الاجنبية مع الآداب العربية في البوتقـــة اللبنانية : فيتولد من هذا التفاعل أدب عربي جديد ينحو منحى الآداب العالمية ويحتفظ في الوقت نفسه بروعة الديباجة ومتانة الاسلوب .

ولعلنا نكفي أنفسنا عناء التوسع في الشرح إذ نقدم لك اديباً لبنانياً معاصراً كان يمثل بحق هذه النزعة الجديدة وكان يحمل بحق هذه الرسالة الادبية ، هو فقيدنا الغـالي المرحوم عمر الفاخوري . فقد أقبل على الادب الاجنبي فنهل منـه ما اتسع له عمره القصير وأقبـــل على الادب العربي فنهل منه ما مكن له في الاسلوب والديباجة الخالصة ، فجاءنا بادب جديد في أسلوب جاحظي ، يقرأ العربي المحافظ كتاب « أديب في السوق » فيعجبه ، ويقرأه العربي المتمكن من آداب الغرب فيقول ما قاله جرير حـــين سمع شعر ابن ابي ربيعة : « هذا والله ما أرادته العرب فاخطأته وذكرت الحبيب والمـــنزل وأدركه هذا القرشي .. » وهنا أدركه هذا اللبنـــاني ! ...

ويمثل هذه النزعـــة الادبية الجديدة في مصر الاستاذ توفيق الحكيم فانت إذ تقرأ « اهل الكهف » و« شهر زاد » تشعر بروح ادبية عالية تذكرك بادباء اوروبا العالميـين في قالب عربي – مهما حاول النقاد الحط من شأنه – فهو سائغ مبين .

هذا الشق الثاني من رسالة لبنان الادبية ميسور ونحن صائرون حتما الى تحقيقه . ولبنان مهيأ بطبيعته للاضطلاع به ، فهو البوتقـة العربية العجيبة التي ينصب فيها أدب الصحراء والنخيـل ويندمج بادب هوغو وشكسبير ودانتي وغوته وتولستوي وينصهر على مهل فيتولد منه أدب جديد بروحه ومعانيه وصوره ، عربي بقالبــــه وديباجته المشرقة ، يسمو الى مرتبة الآداب العالمية الحديثة .

هذه سادتي هي الرسالة المزدوجة التي ينبغي للبنان ان يضطلع بها في الادب بصورة عامة وفي الادب العربي الحديث بصورة خاصة بسطتها لكم بايجاز وانا مطمئن الى امكان تحقيقها .. كيف لا وقد رأيتها حقيقة واقعة في صديقي المرحوم عمر الفاخوري .

فهرست